رواية

جليلة السيّد

مُدُنُ الحَلِيبِ وَالثَّلْجِ

مكتبة

إهداء لـ..

أبناء سوريا الجميلة

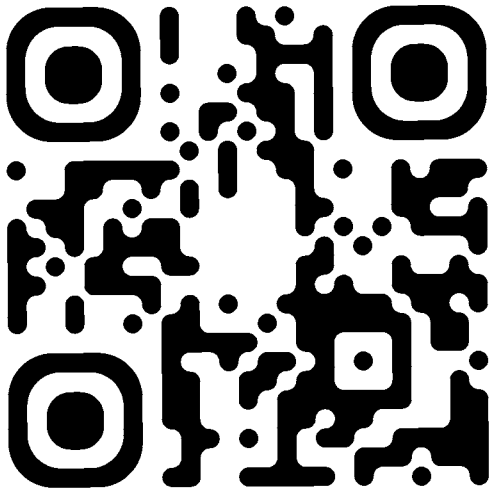

سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

مُدُنُ الحَلِيبِ وَالثَلْجِ

مدن الحليب والثلج

جليلة السيّد

عنوان الكتاب باللغة الانكليزية:

Cities of Milk and Ice

By Jalila Al-Sayed

الطبعة الأولى: حزيران ـ يونيو، 2025 (1000 نسخة)

الطبعة الثانية: أيلول ـ سبتمبر، 2025

Copyright@Dar Al _ Rafidain 2025

مكتبة

t.me/soramnqraa

بغداد ـ العراق/ شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: 9647714440520+/9647811005860+

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
Dar ALRafidain دار الرافدين

daralrafidain
dar.alrafidain
dar_alrafidain
daralrafidain دار الرافدين

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 749 - 30 - 3

جليلة السيّد

مكتبة
t.me/soramnqraa

مُدُنُ الحَلِيبِ وَالثَّلْجِ

www.daralrafidain.com

إهداء

مريم، زينب

وجدان وأحمد.

جهاتي الأربع.. ويقيني.

لِمُغتَصِبِي الطُّفُولَة

بِاسْمِ الحُرِّيَّةِ وَالحِمَايَة

سَيُقَاضِيكُمُ التَّأْرِيخُ وَأَنَا

المصلحة الفضلى

مكتبة
t.me/soramnqraa

سحبوا جُمان، ثمّ يوسف، وكريم.

ثلاثُ أرواحٍ من دمي، تُنتزَع مني بقرارٍ بارد. بشخطةِ قلمٍ فوق ورقة.

كأنّ الأمومة بندٌ قابلٌ للحذف، وقلبي... مجرّد ملف.

قالوا إنني أمّ مضطربة، وعصام قال إنني غبية، أضعتُ طفلتي.

ينادون اسمي.

أقف... تنظر إلى أوراقها، ثم إليّ:

ـ تُحبين أطفالك؟

تسألني وعيناها تُفتّشان قلبي كأنّ الحبّ تهمة. تحدّق بي.. تُنقّب عن كذبةٍ لتعيد بصقها في وجهي. تبحث عن جُرمٍ قديم لأُدان به الآن، حالاً.

تنتظر من ملامحي أن تنهار، من شفتيّ أن تعترفا.

في رأسي تعصف عشرات الإجابات لا أنطق بواحدةٍ منها، الإجابات كلّها معتقلة، فمي أيضًا تحت الوصاية.

هل أحبّ أطفالي؟!

«آنا أموت فيهم»

هذا النوع من الحبّ لا يليق بنموذج التقييم؛ لا يُترجم إلى نقاط، ولا يُدرج في ملفٍّ لأدلةٍ ملموسة. هم لا يقيسون الحب بالنبضات يريدونه حبًّا قابلًا للأرشفة، مكتوبًا بالحبر، لا أن تنكفئ على وسادتكِ كلّ مساء، وتعدّ أنفاس طفلك. يريدون صورًا في دفتر النشاطات، لا ذاكرة مليئة بالأغاني التي اخترعْتِها له، يريدون توقيعكِ على ورقة الالتزام، لا قبلتكِ الخائفة على جبينه قبل النوم. يريدونه على هيئة استبيان:

«من واحد إلى خمسة، كم مرةٍ احتضنتِ طفلك هذا الأسبوع؟»

لا يُقبل جوابك إن كان قلبكِ فقط من احتضنه. هذا الحبّ لا يليق بنظامهم. قالت الآنسة إلين نوردستروم ـ مستشارة الأسرة البديلة ـ إنّها جلسة تقييم غير رسمية. تتحدث عن الأطفال بصيغة الجمع، كما يفعل من لا يملك واحدًا باسمه، ولا يعرف معنى أن يناديك طفلًا فتردّ عليه نبضاتك.

نظراتهم إليّ لا تختلف كثيرًا عن الاستجواب، فقط ينقصها مصباحٌ في السقف، وملفٌّ كبيرٌ كُتب عليه: المُشتبَه بها: أفرطتْ في الحبّ.

كلّ من في الغرفة يحمل ميزانًا بسريرته، يقيسني به.

يقيسني وأنا أنقصُ كلّ مرة.

أفقدُ شيئًا من اسمي، من أمومتي.

وربما من تاريخ صلاحيتي أيضًا.

ينادون اسمي.

يسألونني إن كنتُ أعرف ما يحتاجه الطفل في عمر السنتين، في عمر الستّ، معلوماتي عن جدول التغذية، عن ضرر الشاشة الزرقاء.

وتسألني الأخرى، تطالعني من أعلى نظارتها، كأنّها مزوّدة بخاصيّة كشف الكوارث العاطفية. وأنا صفحةٌ بيضاء، عاطفية بما يكفي لامتصاص الحبر الأحمر، الأحكام المسبقة، والتقييم المعلّب.

ـ ما تعريفكِ للأمومة؟

أجيب همسًا لا يُسمع:

«الأمومة؟»

الأمومة؛ أن تضعي طفلك جهةَ القلب، وتضعي بقية العالم، على وضع الطيران. أن تكوني أول من يستيقظ على شهقة، وآخر من ينام على نبضه، وأن تتذكّري في نومكِ أنّ طفلكِ سيبكي بعد قليل، فلا تعرفين النوم أصلًا.

أن تُخيطِي النهار على مقاس بكائه، أن تنسي صوتكِ لتُتقني لغته، وتُذيبِي جسدكِ كي يشتدّ عوده. أن تنجبيه بعد تسعة أشهر، وتحمليه بعدها كلّ العمر.

الأمومة؛ ألا يظلّ صدركِ يفيضُ بالحليب.

كلّ ذلك لم يُكتب.

ينادون اسمي.

في الخارج، تمطر، سماء السويد لا تتأخر في البكاء.

ألتفتُ جهة النافذة. أضعُ يدي على الزجاج، أبحثُ عن وجهٍ، عن أيّ

انعكاسٍ يشبهني. أستعيدُ ملامح من لحظة موتي؛ لا مشهدًا كاملًا، ومضة فقط.

حافلة تقف، امرأة تصرخ، وطفلٌ يُنتزع.

لم يكن ذلك حلمًا. ولم تكن ولادتي كذبة.

لكن كريم لا يملك تاريخًا بعد، لم تُسجّل صرخته في دفاتر الدولة. لم يُمهله القدر أسبوعًا ليُمنح اسمًا، بقي عالقًا بين زفرة وصرخة.

اسمه خارج الملفات، دمي الذي يجري في عروقه غير معتمد، ينقصه ختمٌ رسميّ لأصبح أمه.

صدري ظلّ يفيض به، وجعي هناك، عند الحافلة، لا يغادر.

تبًا لكم.. الأمومة لا علاقة لها بتسجيل الاسم.

ينادون اسمي.

أقف، فارغة!

أنهت الجلسة بعبارة تليق ببريدٍ إلكتروني:

ـ سنحتاج إلى وقت أطول لتقييم أهليّتك كأمّ. يمكنكِ الانصراف الآن.

أخرج،

الأرض طين.

أمشي وأترك أثرًا لا يتبعه أحد.

أنا امرأة لا تُرى.

امرأةٌ لا يتذكّرها أحد إلا حين تبكي بصوتٍ مرتفع عند مؤسسة الرعاية الاجتماعية، ولا يراها أحد إلا حين تسقط.

ولستُ واثقة بعد: هل سقطت فعلًا، أم أنني لم أنهض أصلًا؟

لا أعرف إن كانت قدمي لامست يومًا أرضًا صلبة، أم أنني كنتُ دائمًا أترنّح بصمت، كأن الحياة نسيت أن تعلّمني الوقوف. لحظة الزلزال الأول؟

نعم، أتذكر أرض تهتز، ذراعٌ تُنتزع، طفلةٌ تُؤخذ، وقلبٌ يُفصل عن ضلوعه. حين انتُزعت جُمان من بين ضلوعي، شعرت أن شيئًا فيّ مات ولم يُدفن. كانت لحظة انقراضٍ داخلي، كان موتي الأول.

***

لا شيء يحدث بغتة. كلُّ ألمٍ هو امتدادٌ لوجعٍ قديم، وكلّ سقوطٍ هو تتمّةٌ لسقوطٍ سبقه. الحياة تُعِدُّنا للفقد على جرعاتٍ خفيّة، حتى لا نفزع حين يدهُمنا بأكمله. تدريبات ناعمة قبل الطامة الكبرى، تشيرُ بيدها ساخرة:

«تفضّلي... هذا نموذج مصغّر مما هو قادم».

متى بدأت الحكاية حقًا؟ أكان ذلك حين سُلخت جُمان من بين يديّ، وأُودِعت في كنفِ غرباء بمدينةٍ بعيدة؟ أم حين انطفأ في داخلها قدرةُ الاحتمال، وقررت أن ترحل كما تفعل الأرواح المتعبة؟ أم حين قررت المؤسسة ـ بكل موضوعية ـ أنني غير مؤهلة لأكون أمًّا؟

«فاشلة، ضعيفة، لا توفّر حياة مستقرة»...

ثلاث نقاط تُختم بها صلاحية قلبك في تقرير رسمي. كأنّ الأمومة وظيفة حكومية تحتاج إلى تزكية ومؤهل جامعي في فنّ الاستقرار.

فخٌّ ينصب لي، وأسقطُ فيه..

ـ ابنتكِ ستذهب معنا الآن.

ـ ماذا؟!

ـ سوف تُوضَع تحت رعاية مؤقتة، حتى يتم تقييم الوضع.

ـ لا! جُمان لن تخرج معكم!

السكّر يصعد في دمي وأنا أهبط في الواقع.

جُمان تُنتزع كما تُنتزع صلاحية الأمومة بقرارٍ مؤقت.

صرختُ.

ثُمّ صرخت باسمها مرارًا.

يوسف خائف، يصرخ معي، خفت عليه، خفت عليها أكثر.

هي واقفة هناك، تنظر إليّ بعينين مليئتين بألمٍ لا أفهمه.

لا أفهم كيف استطاعت أن تفعل بي كلّ هذا.

ـ جُمان، لا تروحين وياهم، تعاليلي، تعالي حگ أمّج!

لكنها لم تتحرك، لم تأتِ إليّ، لم تنطق بكلمة.

ثمّ... أُغلِق الباب وراءها.

وغابت. وغاب معها كلّ شيء.

بابٌ يُغلق بيني وبين ابنتي، بيني وبين حقي في أمومتي.

لا استماع.. لا نقاش، فقط قرارات صلبة تُلقى في وجهي كأنها صفعات.

قيل لي: أُودِعَتْ جُمان في منزل عائلةٍ سويدية، ستكون بأمانٍ، وستعيشُ حياةً أفضل، وإنها ستتعلم وتكبر بعيدًا عن اضطراب حياتي.

في تقريرهم، كنتُ برنامجًا معطوبًا، وجُمان تحتاج إلى إعادة تشغيل في نظامٍ أكثر انضباطًا، نظامٍ لا يعلّق في الذاكرة، ولا يحتفظ بسجلّ الهوية.

صدّقتهم، أو ربما أردت أن أصدّق... فالكذبة المغلّفة بالمصطلحات التربوية كانت أسهل من مواجهة كابوس يُقدّم ضمن جلسات الدعم النفسي على أنّه حماية. صدّقتهم لأن الحقيقة كانت بشعة لدرجة لا تليق بالمؤسسة.

والكابوس، لم يكن في سحبهم فقط. الكابوس في اقتناعي، للحظة، بأنهم ربما كانوا على حق، وأنني أنا من يجب أن أسلمهم أطفالي بيدي، ظنًا أني أنقذهم مني.

***

من يستطيع أن يشرح كيف تعيش أمّ فقدت طفلتها دون أن تموت معها؟ لا دليل استخدام لهذا النوع من الفقد، لا إرشادات للنجاة، لا خريطة طريق لمن نُزِع قلبه وهو ما يزال حيًّا. كيف تمارس حياتك بشكل طبيعي وأنت تعلم أن جزءًا منك مودَع في مكانٍ مجهول؟

في الأيام الأولى بعد انتزاع جُمان، مررتُ بحالة إنكار. أستيقظ، أهرع إلى غرفتها فلا أجدها، الغرفة صارت أكثر اتساعًا منذ غيابها. جُمان لم تعد إلى البيت، لم تكن في بيتنا، في منزلٍ آخر، بين أُناس لا أعرفهم، كلّ شيء يردّد صداها. هاتفها مغلق. رقمها تحوّل من وسيلة اتصال إلى ذكرى غير متوفرة حاليًا، تمدّ يدك إلى الهاتف كأنك تمسك بالأمل من عنقه، ثم تتذكّر

أنّ الاتصال به لم يعد متاحًا، لأنّ أحدهم قرّر أنّ الحياة ستكون أنسب له من دونك.

جُمان لم تمت، لكنها غادرت المشهد بصيغة بيروقراطية:

«تمّ الإبعاد حفاظًا على المصلحة الفضلى للطفل».

وأنا بقيتُ هنا، أعيش، لكن دون أن أعرف لماذا؟

الجميع ينسى... إلا الأم.

الزمن وجُمان، سرقاني وأنا أغني.

جُمان أول غُنوتي،

وهي أول ندباتي.

تلك التي لم تُشف، لأنها لم تُخط أبدًا.

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

على قيدِ الخربة

في ربيعٍ ممطر، وُلدت جُمان.

وكأنّ مجيئها بلّل التصحّر في صدري، روّى أرضًا طال جفافها. حين حملتها بين ذراعيّ لأول مرّة، أيقنت أنني أُمسكُ الكون كلّه، وأن الخير ـ بعد كلّ شحٍ جفّفني ـ سينبع من كفّيها الصغيرتين.

لم أصرخ من الوجع، أصرخ من شعورٍ بالفقد بدأ منذ أولِ صرخةٍ لها. شعرت أن روحًا تنفصل عني لتقف أمامي بهيئة ملاك. أتأملها كأنها المعجزة التي تأخّرت. كأنها الوعد، النبوءةُ التي سرت في دمي.

في غرفةٍ تفيض بياضًا، أستلقي بين أيدي ممرّضات لا يهمّهن سوى القياسات والضغط ومعدّل الانقباض. وجهي مبلّل بالعرق، فمي جافّ، والبرد يُهاجمني من الداخل.. أمسك يد الممرضة، أضغط عليها بما فيّ من وهن، يدٌ على بطني، وصوتٌ يقول:

- «push!», «Almost there»

أصرخ. شيءٌ من روحي ينسحب، يغادرني خارجًا. أصرخ كمن يودّع، لا كمن يستقبل. الوجع يشتدّ، يقطعني شطرين. أتذكّر أمي، صوتها، دفء يدها على جبيني.

صمتٌ، ثمّ صرخة.

صرختها!

تنفجر في الغرفة كحياةٍ تعلن حضورها ببذخ، تزن كلّ ما خسرتُه. ينهار وجعي أمام بكائها. تضعها الممرضة على صدري، دافئة، زهرية. ترتعش كفراشة خرجت لتوّها من شرنقتها. أنظر إليها، وأعرف أنّ هذا الوجه سيعيد ترتيب فوضاي، أو يبعثرني أكثر.

بعد الولادة، بالكاد أنام. جُمان نائمة على صدري، دثارٌ دافئٌ من روحٍ صغيرة، ينبض بي. أنفاسُها تتهجّى الهواء، وأنا أتهجّى الحياة، لأول مرّة، تحت عتبة الأمومة.

في عينيها أرى سؤالًا. جاءت لتسألني عمّا فعلتُ لأجلها قبل أن تأتي، وعمّا سأفعل لها بعد أن جاءت. أضمّها أكثر. أخاف أن تُخدش، أن يضيع منها الدفء، أن يسرقها هذا العالم مني.

أهمس لها أنينًا يخرج من عمق قلبي.

كأنني أعتذر.

كأنني أتوسّل أن تبقى.

***

بعد ولادتي، انتابني امتنانٌ نادرٌ لعبد الحي، ليس لشيءٍ إلّا لأنه وافق على أن تحمل ابنتي اسمًا اخترتُه. ردّ بسخرية:

ـ ليش لاء.. سميها جُمان البحرينية.

احتضنته. لوهلةٍ شعرتُ بشعاعٍ دافئ وسط عتمة علاقتنا. خُيّل إليّ أنّ البداية ما زالت ممكنة. أنسى عصام وأقترب منه. أمنح هذه العلاقة فرصة أخرى. أحاول ولو من أجلها. من أجل ابنة ستكبر بيننا، كيف لا أتقبله وهو يشاركني دمها؟

حاولت لكني كنت كمن يشرح رقصة التانغو لتمثالٍ حجري، تحطّمت كل محاولاتي على صخرة طباعه، في كل مرّة أقترب منه، أرتطم بها.

طفلتنا؟ لم يرَ فيها إلا مشروعًا خاسرًا، ستة أشهر بعد ولادتها بلا حضن، أو نظرة، بلا أيّ بادرة تشي بأنّ في بيتهِ طفلة. مكتبة سُر مَن قرأ

كانت بالنسبة له بندًا طارئًا في جدول المصاريف: حفاضات، ملابس، دواء، وابتسامة لا تموَّل. سمّاها: رفاهيات لا يملك سعة احتمالها. مجرد عبءٍ إضافي، مصاريف ترهق جيبًا يحرسه بشراسة.

لم أعرف عبد الحي قبل الليلة التي سُميت ليلة فرحي، لم نتبادل كلمة في تلك الليلة، أقبل عليّ بخدرٍ، أمسك يدي كما لو أنّها جسمٌ غير مألوف، كما يمسك أحدهم ثمرة بطاطا غريبة الشكل، تأملها طويلًا، قال يخاطبها وحدها دوني «بيضة مربربة». ثم انقضّ كوحشٍ يهمُّ بابتلاع فريسته.

تلك كانت نبوءة لما ستكون عليه حياتي معه.

ثلاث سنوات لم يُتَبادل فيها حديث، لم يجمعنا أي موضوع مشترك، لا فكرة، لا ذكرى تستحق البقاء. الفراش والأكل وتدان لحياتنا، مجرد طقوس يومية بلا معنى، مضغٌ بلا مذاق.

***

ما أقسى أن تراقبَ نفسكَ من الخارج، كأنكَ ممثلٌ بائس في فيلمٍ رديء، لا تجرؤ أن تصرخ: أوقفوا التصوير!

زواجٌ كئيب، جاء متزامنًا مع وفاة أحد وجهاء المنطقة. مصادفةٌ طرب لها عبد الحي، أزالت عنه عبء الحفل، والزينة، والضجيج، والعشاء. زفافٌ بلا أضواء ولا مدعوين، اقتصر على لمةٍ باهتة في فناء البيت: أمّي، زوجة أبي، زوجات إخوتي وبناتهم، خالة آمنة وابنتها سعاد.

جلستُ بينهم بزيٍّ أخضر ورداءٍ أحمر، وسط تصفيقٍ يخفي ضجيجَ روحي. أقبل عبد الحي بثوبه الأبيض وبشته البني، مترجلًا بضحكةٍ تكسو وجهًا غريبًا عليّ، لا يمتُّ لفارس أحلام طفولتي بأية صلة. وللمرة الأولى أرى تلك العاهة الغائرة على جزءٍ من رقبته وخده الأيسر، لأشعر أن عاهة أخرى تشكلت على ملامح قدري.

عبد الحي، أو «عبود» كما يدعونه في الحي، موظفٌ في وزارة شؤون الأشغال والبلديات، مهمته أن يزين شوارع المدينة ويمنح أرصفتها جمالا تستقبل به زائريها، بينما لا يستطيع أن يعتني بهيئته، كما لو أنّه نسي أن يرصف طريقه، كما نسي أن يُرمم بيته وأثاثه.

غارقٌ في السُكر، بخيلٌ كأرضٍ ميتة، في ماله، حنانه، كلماته. لم يفهم من الحياة سوى نزواته وشهوة بطنه. كان صوت مريم نور ينسلّ من التلفاز، تقولها وكأنها تقرأني: «الرجال ما عم يفهم غير بكرشه وتحت كرشه».

شعرتُ أنها تعرفه أكثر مما يجب... وتعرف وجعي كما يجب.

ثلاثة أعوام في غرفةٍ متهالكةٍ، أبى أن ينفق فلسًا واحدًا في ترميمها لأجل زواجه. بابٌ خشبي ينتمي إلى عصرٍ آخر، يفتح ويغلق بصخبٍ كمن

يصرخ طلبًا للنجدة. رائحةٌ تشبه رائحة سمك ميت، جدرانٌ متصدعة. سقفٌ متآكل من أثر الرطوبة. بينما الغبار يغطي الأركان، كانت لوحة متكاملة تصوّر عبثية الوجود من حولي.. حقًا لماذا أنا هنا؟!

سريرٌ بغطاءٍ باهت، خزانة ملابسَ مائلةٌ في إحدى زوايا الغرفة، تشهد اعوجاجِ حظي العاثر. مرايا تعكس صورتي متكسرة إلى شظايا يخيل لي أنها تهمس بصوتٍ مكتوم: أنتِ مثلي، محطمة. على الطاولة الخشبية، تلفازٌ قديم، يبث ألوانًا متداخلة، مذياع مكسور، أسلاكٌ، حواسيب كبيرة قديمة، تكدّس عليها الغبار. للغرفة دورة مياه نتنة تطل نافذتها على زريبة بقر. وسمفونية خوار لا تهدأ.

ثلاث سنوات عالقةٌ بين تلك الجدران. محاصرة برائحة كريهة، لا تجدي معها محاولات الإنعاش بمعطراتٍ زهيدة. حتى استسلمت رئتاي، تلوثتا بهذا المحيط الكئيب، وفقدتُ حاسة التمييز بينه وبين أنفاسي.

زواجي لم يكن سوى مخرج. مخرج لأخوتي من عبء فتاةٍ تتأرجح بين اليتم والحاجة، وربما مخرجًا لي من شعورٍ خانقٍ بأني صرتُ ثقلاً، «ولا أحد هنا.. مهتمٌ لأجلي».

حين أقبل الموت ليصافح أبي لم أستوعبه. ظننتُه سينهض بعد قليل، وينزل من الطابق الثاني بخفته المعتادة، يمسح بكفّه رؤوسنا ويبتسم، قائلا: «كنت أمزح»

لكنه لم يفعل.

منذ ذلك اليوم، صرتُ شخصًا زائدًا في البيت. جميعهم يكبرون دفعة واحدة، وأنا وحدي باقية عند العتبة. لا أنا صغيرة تُحمى، ولا كبيرة يُسأل رأيها. كل ما فعلته أنني أسلمتُ نفسي لما اختاره الآخرون.

ثم قمتُ بدفن قلبي مرّة تلو الأخرى.

من بيتِ أبي، إلى بيتِ عبد الحي، لم أفتح النافذة يومًا، ولم أُغلق بابًا بيدي. كنتُ أنصتُ إلى جدرانٍ تُعلّمني كيف أُطيع، كيف أُطفئ ضوءي، كيف أبدو زوجةً بلا ملامح...

لم أكن أعيش..

كنتُ أُستعمل.

يتلذذ، وأنا أذبل.

يتوضأ بمائي، ويتركني للعرق والدموع.

وحين بكيتُ لأول مرة، قال: «هذي شغلتكم.. نواح وعويل».

فكففتُ عن البكاء.

كلّ ما فيّ انكمش.

حتى أنوثتي، صارت شيئًا مؤجلاً... شيئًا لم يُزهر بعد.

***

عامٌ واحد، وكنتُ غارقةٌ في العدم.

قررتُ أن أتشبّث ببصيصٍ ضوء يذكّرني أنني ما زلتُ حيّة.

حلمي أن أكمل دراستي الثانوية بنظام المنازل. طلبتُ منه بإلحاحٍ غريقٍ يمدّ يده لآخر طوق نجاة. وافق بشرط أن تتحمل أمّي تكاليف دراستي، ألا أطلب منه فلسًا واحدًا. ولأنّني أعلم أنني أطلب المستحيل من رجلٍ يزن كلّ فلسٍ وزن حجرٍ كريم، قبلتُ الشرط. له ما أراد، ولي شيء مما أردت.

استعرتُ دفاتر وقرطاسية حليمة من سنتها الماضية. أمضيتُ أيامي بين كتبي ومدرسة محو الأمية ودفاتر حليمة، أنسجُ من اجتهادي ملجأً يحميني من واقعي.

حصدتُ ثمرة التعب بتفوّقٍ جعلني الأولى على طالبات محو الأمية، وكانت المكافأة بعثة دراسية. كأن الحياة أخيرًا تفتح لي نافذة لأتنفس من غير رائحة الروث. لكن عبد الحي كان صامدا، سدًا منيعًا أمام الأمل. رفض التحاقي بالجامعة بذريعة حملي بينما كانت الحقيقة خوفه أن تهتز محفظته فحسب. هكذا، لم يكن لي سوى الرضوخ، طيّ جناحيّ كأوزةٍ عجوز، فأنا زوجة بلا حول. يتيمة الأب والأخوة.

***

ـ أبوج مات.

هكذا قال أخوتي ببساطة، في أول يوم من السنة الجديدة. تلك السنة التي بزغت مختنقةً بالسواد، كُسفت شمسُها منذ لحظتها الأولى فانتزعت مني لذةَ الفرح بقدوم العام الجديد.

ثمانٍ وعشرون سنة مرّت بعدها، كنتُ مُجرد شاهدٍ عابرٍ على احتفالات الناس وبهجتهم. أشاهد من بعيد أضواء الاحتفالات وبسمة الوجوه. داخلي هامد، شجرةٌ أضناها الشتاء، تتأمل الحياة من حولها دون أن تمدّ لها غصنًا أخضر.

صفارةُ إنذارٍ تدوي، سيارةُ إسعافٍ تتأهب، مسعفون يهرولون أعلى وأسفل الدار، خطواتٌ محمومةٌ، أنفاسٌ تُسرق من الهواء.

يخرجُ أحدهم مسرعًا، يعودُ حاملًا صندوقًا ثقيلًا. كأنّه يحمل قلبًا أخرج للتو من قفص صدري. في الأعلى... صرخاتٌ توحي أنّ سقفًا يكاد أن يسقط.

أما نحن، أنا وحليمة، فنلعب «صفاگية» عند عتبة الدرج، نصعد ونهبط كما تفعل خطوات المسعفين، نقلّدهم، نضحك بلا صوت، بينما ترتجف الأرض من تحتنا.

ـ حليمة، شنو صاير فوگ؟

ـ بابا عود مريض.

كلمةٌ تنزلق من فمها، فيتمزق قلبي، كأنني طُعنت.

مرّت ساعةٌ طويلةٌ قبل أن ينزل المسعفون، هذه المرة خطواتهم بطيئة، تحملُ نقالةً تكسوها ملاءةٌ بيضاء، خيالٌ خافتٌ محمول، يختلج قلبي.

قالوا إنه أبي.

لم يكن مريضًا، لم يشكُ من علّة، كان رياضيًا، يمشي كل صباح بلا توقف، يهتم بأكله وصحته، مع هذا، سكتةٌ قاضيةٌ غدرت بقلبه.

رحل، ولم يشترِ لي أقلام العام الجديد ولم يكتب وصيته ليذكّرهم: اللّه اللّه بالقربى. رحل متعجلاً في عقدهِ الخامس، تاركًا خلفه امرأتين، وثلاثة أبناء، وأحفادًا كُثر.. وأنا.

لم يبت ليلته الأخيرة في سريرِ جُمان أحبّ نسوته إليه، لاحقًا، بدا لي غيابه عن دارنا تلك الليلة نوعًا من الرحمة، ربما لو مات بين جدراننا، لاختلف طعم كل شيء، وكرهت الدار كما كرهت بدايات كل الأعوام.

شُيّعت طفولتي مع جنازته، ودُفنت في الزاوية التي كنت أجلس فيها لأراقبه وهو يزرع أصص النعناع.

تركني على عتبة اليتُم، ثمّ عتبة عبد الحي.

قالوا: الحياة لا تقف، والأم لا تقوى وحدها، وكان عليّ أن أرتدي ثوب المرأة قبل أن أخلع مريول المدرسة. قالت لي جُمان:

ـ إيه يبنتي، عبد الحي رجال كبير رح يعوضك عن المرحوم أبوكي متل ما اللّه عوضني بأبوكي عن كلشي.

ببراءة طفلٍ غُرِّرَ به، صدقتها، حين ساقني أخي عبد اللّه نعجة إلى بيت صاحبه. غيرَ أنّني أفقتُ سريعًا على حقيقةٍ مرّة: الأب لا يعوضه زوج، مهما كان عمره أو منزلته.

وآمنتُ أنّ بعض الفقد يشبه ثقبًا لا يُردم، مهما حاولنا، تهزمنا هشاشته.

***

في ظهيرةٍ دبقةٍ من الصيف، جُمان تُكمل شهرها السادس. تفترسها حمى بعد حقنة التطعيم، تلهب جسدها الصغير، تنتفضُ كلما حاولت تهدئتها. أراقب أنفاسها المتقطعة، أضع راحتي على جبينها، أشعر بلهيب ينهشها.

عيناها نصف مغمضتين، نظراتها زجاجية، خدّاها متوهّجان، أنفها يصفر مع كلّ شهيق. أحاول أن أُرضعها، تتقيأ الحليب والبندول، تبكي، وتدفعني بكفّيها الواهنتين. أضغط بقطعةٍ مبللة على جبينها، تئن، وتدفعها بوهنٍ.

ـ بس، يمّه، بس حبيبتي.

أحملها، أُهدهدها، أدور بها في الخربة. أشعر بلساني يلهج بكلمات لا أعرف إن كانت دعاءً أم محاولة لطمأنة نفسي. أقيس حرارتها، ترتفع من جديد.

ـ يمة بتروح من إيدي!

أفتح الثلاجة الخالية إلّا من ماءٍ بارد. أغمس قطعة قماش أخرى، أعصرها، أضعها على رقبتها، معصميها، قدميها الصغيرتين. لا تهدأ، تبكي بصوت واهن متقطع، بُكاءً يشبه الأنين.

أنا وحدي. لا أحد يأخذها إلى المستشفى. لا أحد يساعدني. لا أحد يقول لي:

ـ لا تخافين، بتصير زينة.

وحدي، كما اعتدت. منذ فُصل عبد الحي من عمله، بالكاد أراه مرة أو مرتين في الأسبوع. يعود ليرتمي على السرير بثيابه المتسخة ويغطُّ في نومٍ طويل. مستهلكٌ في سُكره، غائب في أماكنه المشبوهة، في صداقاتٍ لا أعرفها، ووجوه لا تخصني. وحين يكون هنا، يُحضر غيابه معه.. على هيئةِ نساء يتصلن في منتصف الليل، فواتير لم تُدفع، عراك على ديون متراكمة، مقايضات على أشياء أخرى مخزية. تفوح من فمه رائحة خمرٍ وعفن، يهمهم بكلماتٍ لا أفهمها، يضحك ضحكة ثقيلة تجرح الهواء، يسحبني، يطوّق عنقي بيده، يهمس بخدرٍ وسخرية: «آنا الريال، بكيفي متى أرد، متى أغيب، ومتى أكون مع غيرج!» وكأنني نبستُ بنغمةِ عتابٍ أو شوق.

كان غيابه خلاصًا، ووجوده عبئًا، حين ينفجر غضبه يطردنا خارج البيت، ثُمّ يعود ليجذبني بعنف إلى الداخل، يضربني ويشتمني، كأنني أنا من قررت الهروب.

قبل أيام من مرض جمان طردني، لأنني شغّلت مكيّف الهواء رغم أنه كان مغلقًا حين دخل الغرفة. لكنه شعر ببرودة أزعجته، استنتج أنّ المكيف كان يعمل. ذاك الجهاز المتهالك، لا يُشَغَّل إلّا في مناسبات نادرة، تشغيله جريمة، ذنب يُثقل كاهل الميزانية. غضبه ينفجر كلما فكّر في فواتير الكهرباء، يخشاها أكثر مما يخشى اللّه.

دفعني للخارج مصوبًا سبابه على رأسي، فزعت جُمان، واختلط بكاؤها بصراخي. ولم يسمح لي بالدخول إلا بعد تدخل جارتنا الخالة أم سالم، عيونها دائمًا تسألني: «ليش مستحملة كل هالذل؟»

وأنا صامتة، لا لأنني بخير، بل لأنّ الوجع حين يفيض، يُخرس اللسان. والقلوب التي ذاقت أكثر مما تحتمل، تتعلّم ألا تُظهر نزيفها، يصبح الدم جزءًا من النبض، يمرّ خفيًا، كما تمرّ الخيبات.

في تلك الظهيرة تحديدًا، وجُمان تلفظ أنفاسًا حارّة، متقطعة، تتلوى بين يديّ. عاد. مترنحًا، يضحك ضحكة وقحة، بيده زجاجة لم يكلف نفسه عناء إخفائها في نهارٍ فاضح. رآني جاثية على الأرض بجوار جُمان، أطلق ضحكة أخرى، مسح فمه بكمّه، اقترب بعينين متقدتين بسكرٍ ووحشيّة. انتزعها من بين يدي بعنف، صرختُ، توسلتُ، دفعني بقوة أكبر، سقطتُ. أمسكتُ بجُمان، حاولت ضمها إلى صدري بكلِّ ما أوتيت من قوة، بينما يلهب وجهي بصفعات ناريّة:

ـ أگولج.. هذي أكيد مو بنتي.. گولي بنت من يالفاجرة، يالگ...

ـ شتگول؟!

كلماته كانت مسامير صدئة تنتزع فجأة من روحٍ متخشّبة. ظلّ يصفعُ ويشتم، جُمان تصرخ، وأنا خائفة بلا جرم... بلا حماية.

***

عبد الحي... أبو الهول، كما كنتُ أسمّيه، لجموده، لسانه لا يعرف الغزل، ولا ملامحه تنبض بعاطفة. منذ فُصل من عمله، صارت الشتائم لغته الأم. يسبّ أمي، يلعن أبي، يرميني بكلماتٍ مسنونة كالحجارة. يلكمني، يرفسني، وأنا جاثية عند قدميه، أحتوي جُمان، أصد الركلات عنها بجسمي الهزيل، أحميها من جنونه وهيجانه، من افتراءاته التي انهالت كالسياط. ثمّ، دون أن يلتقط أنفاسه، دفعني نحو الباب بعنفٍ، زجّني:

ـ اطلعي بره!... برااااااااااااااااااا!

لم أتحرك، اندفعَ نحو الباب، فتحه بعصبية، عاد إليّ، أمسك ذراعي، جرّني كأنني كيس قمامة يرمى عند الباب. توسلتُ، تمسكتُ بإطار الباب، دفعني بيدٍ واحدة، سقطتُ مع جُمان. جسدي احتك بالأرض الحارقة، الإسفلت المغلي التهَمَ جلدي تحت شمس الظهيرة. صراخ جُمان يستعطفه، دموعي تستجديه، لكنه لم يكتفِ. تلعثم بكلمات مشوّهة، وانهال عليّ بركلات متتابعة، تنغرس في ظهري. كنتُ جسدًا يتلوى تحت جنونه، تداخل صراخه مع أصوات الجيران، شهود دناءته، خرجوا على وقع الصراخ والركل... على صوت انكساري. دفعني خارجًا، كمن يتقيأ وجودي من حياته، ثمّ أغلقَ الباب خلفه، وأنا مرمية في منتصف النهار،

تحت شمس تلهبُ الأرض فتتبخر من حرارتها كرامتي. حافية، بملابس البيت، بلا شيء يسترني سوى هذا الذل الذي التصق بجسدي.

الجيران يسرعون نحوي، أبعدوا جُمان عن رجفة صدري، دق بعض الرجال بابه بعنف، وامتدت أيدي النساء لمساعدتي على النهوض. ألقت إحداهن عباءتها فوق جسدي، وأخرى رفعتني بعيدًا عن شتائمه.

ـ حسبي الله عليك يا عديم الشرف!

ـ شلون تسوي فيها جذي؟! شلون ترميها ويه بنتك بهالشمس؟!

ـ يا ويلك ما تخاف الله. هاي زوجتك، وبنتك، وين رجولتك؟!

أرتجفُ رغم الحر، أشهقُ بالبكاء:

ـ ما أبي أرد له خالة... يضربني، يضرب حتى بنته... ما أبي أرد له!

لم يحتج الجيران أدلةً لاستغاثتي، كانوا أنفسهم شهودًا على سنوات العنف والشح. فتحوا لي باب السيارة، أصرّوا على أن أذهب معهم، أن أثبّت حقي، أن أضع حدًا لما ظننته قدرًا لا يُرد.

ـ هالمرة ما يصير تسكتين.

ـ لازم نودّيج مركز الشرطة. وتشتكين عليه!

ـ يلا لولوة، ما بنخليج هالمرة تردين له، أول تثبتين كلشي وتاخذين حگج.

صعدت السيارة، يدي تحتضن طفلتي المفزوعة وجبينها الملتهب، أم سالم بجانبي تربّت على كتفي. في مركز الشرطة، تساقطت الشهادات كحجارة على صدر عبد الحي:

ـ هذي مو أول مرة... احنا كلنا نعرف شيسوي فيها.

ـ ترى الريال مو صاحي، سكران طول الوقت، ويضربها بدون سبب!

ـ يرميها في الشارع نص الليل، لو في الشمس الگايلة، ويدخلها غصب عگب ما يهينها لين يشبع!

صدر القرار بتحويلي للمستشفى لتوثيق الإصابات. فحصوني، فحصوا جُمان. سألتني الطبيبة بحدّة:

ـ من متى الياهل حرارتها مرتفعة؟ ليش ما وديتوها المستشفى؟

شعرتُ بالعار.. كنتُ مشغولة بالجُبن، بالهشاشةِ والهوان، بالبقاء، وأيّ بقاء، أحارب لأبقى على قيد الخربة، لم أنتبه أن صغيرتي تنصهرُ ببطء بين ذراعي. وُثّقت حالتي وحالة جُمان وحرارتها اللاهبة في التقرير، وأُرسلت التقارير إلى الشرطة، كدليلٍ إضافي على العنف الذي لم يعد بالإمكان إنكاره أو التغاضي عنه.

من المستشفى اتصلت بأمي:

ـ يمه، آبي أطلگ.

***

بنت السورية

أمي...

المرأة التي حملت عني ما لا يحتمله سواها.

تكفّلت بي وبجُمان، من قليلِ ما في جيبها، من تلك المساعدة الشهرية البسيطة التي تتلقاها من وزارة التنمية الاجتماعية، وعملها البسيط غير المنتظم في بيع المأكولات. لم تكن بالشيء الكثير، غير أنها جعلتها كافية، قَسّمت القليل ووزعت رغيفها ليكون لنا نصيبٌ منه دون أن نشعر بمشقتها، دون شكوى ودون عتاب.

عدتُ إليها وأنا أحملُ طفلة، وحزنًا، وعبئًا جديدًا.

حافية، من كلّ شيء.. حذائي، طفولتي، عذريتي، بعثتي الجامعية، أحلامي، كلّ الخسارات التي تجرّعتها دُفعةً واحدة.

طلاقٌ في التاسعة عشرة،

بين يدي ثمرة زكية من كلّ هذا الخراب: جُمان.

أعود إلى غرفتي القديمة لتضمني من جديد؛ أنا، وأمي، وصغيرتي.

أضع رأسي على وسادتي كلّ ليلةٍ وأنا أعرفُ أنني مدينةٌ لها، أنني ما كنتُ لأنجو لولاها، وجُمان لم تكن لتحصل على الأمان لولا أنّها في رعاية جدتها جمان الكبيرة، تساند، وتعطي بلا حساب.

***

جُمان، الحكايةُ الأحب على لسان أبي لترديدها.

في إحدى زياراته للشام في الثمانينات، عاد برفقةِ فتاةٍ شقراءَ جميلة، عيناها تضيئهما البراءة، قال إنها يتيمة الأب والأم، لا عائل لها سوى شقيقها عبد الكريم، خالي الذي تهلّل وجهه فرحًا بطلب أبي الزواج من أخته الصغيرة.

حملت جُمان بي مرارًا، تجهضني في كلّ مرّة قبل أن أكتمل. أُشيعَ أنّ ضرّتها العاقر تُغدقها بأعشابٍ قاتلة في أكواب شاي، لتُجهض أجنتها واحدًا تلو الآخر، حين حملتْ جُمان بي للمرةِ السابعة، كانت ضرّتها تحتضرُ إثر مرضٍ عضالٍ لم تُشفَ منه، رغم حرص أبي على أن يتكفل لأجلها بعلاجٍ باهظ الثمن، ماتت هي، وبقيتُ أنا متشبثةً في رحم أمي الدافئ لم أَسقُط إلّا في عمقٍ أدفأ، ذلك هو حضن أبي.

دللني كما لم يُدلّل أحدًا، ويبدو أنّني دفعت غاليًا ضريبة هذا الدلال لإخوتي، وحدي أرافقه إلى سوق الخردة، يشتري لي أشرطة الرسوم المتحركة، يحمل صناديق فاكهة إلى مدرستي، يُفرِح المعلمات، ويزرع دلالًا في وجوههم تجاهي. حين مات، فقدتُ ذلك الموقع. صرتُ مجرّد رقم في سجل المساعدات.

عاش أبي جميلًا، مات جميلًا. جماله في كلّ شيء: اسمه، هندامه،

جلسته، كرمه، شهامته. شهرُ رمضان عنده موسمٌ للألفة، يجمعنا حوله على مائدةٍ واحدة، كأن السفرة تمتد لتحتضن قلوبنا قبل أيدينا.

أطباق أمي جُمان، تفوح منها رائحة الياسمين. الفتّوش بطعمه اللاذع، طبق الشيش برك، والكبّة الذهبية، يلتقي البرغل الناعم باللحم المتبل، قشرتها المقرمشة تخبئ حشوة غنية، كل قضمة منها حكاية، تُغمس في اللبن أو تُزين بالرمان، يعشقها أبي وأخوتي، الجميع يمد يده إلى السفرة بشغف، وأبي يتصدر المشهد كأنه مركز كلّ لذة.

لم يكن ثريًّا، كان غنيًّا بروحه. أحَبَّ البحر، رغم أنّه لم يرث مهنة الطواويش من أجداده، يكرر: «من گدي وأنا بين الجُمان واللولو؟»

يدغدغني بحبٍ، يُقبّل أمي، يمازحها: أبغيج تشدين روحج وتيبين لي درزن.. ياقوت، ومرجان، ودرة، ودانة، وزمرد. أبغيج تجمعين لي لآلئ البحر كِلبُوهم.

شهمٌ إلى ما لا نهاية، لم يُطَلِّق امرأته العاقر، ولم تسُؤ معاملته لها، حتى بعد تردّد الشائعات المستمرّة في أذنه. ميمونة تُسقِط أجنة جُمان، يردد من كرم اللّه عليّ أنّ في الجنة ملائكة تنتظرني، هم أبناءٌ لي فقدتهم قبل فرحتي بولادتهم.

رجلٌ كريمٌ نقيضٌ تمامًا لعبد الحي. كنتُ دائمًا أراه متفردًا، وأظنُّ أنّ أبي جميل لم يغرس صفاته تلك في أبنائه بقدر ما زرعها في أمي جُمان.

جُمان، صورةٌ منه تمشي، ناطقة لروحه، كريمةٌ وعزيزة نفس. لم تطلب شيئًا من أبنائه، عاشت على القليل، حتى أقنعتها خالة آمنة بالحصول على مساعدة من الدولة، ومع ذلك، كانت ترى في المال وسيلةً للكرامة، لا

عكازًا، طبخت ما تعرفه من الشام، وباعته لأهالي الحي، جمعت وقتها بين الطهو وتربيتي، ظنّت أن الجهد يحمي من الحاجة... لكن الزمن له رأي آخر. أصابها الروماتيزم مبكرًا، رطوبة البحرين سكنت عظامها كما سكنها الوجع، لم تكن الرطوبة وحدها من نخرت عافيتها، خشونة الأيام أيضًا، وثقل المسؤولية بلا يدٍ تُسند.

***

لا يدٌ بعده تسندنا.

بهتت الأشياء، اختفت الألوان. علبة ألواني لم تستبدل، صرتُ أحتفظ بها كما يُحتفظ بذكرى، أخاف أن تنفد كما نفد وجوده، الألوان أثر، حضور، معنى... وحين غاب، أخذ معه بهجتي، وتركني أمام علبةٍ واحدة، أتأملها كما يتأمل اليتيم صورته مع أبيه.

عرفت اليُتم في حقيبتي، في أقلامي التي لم تعد تأتي من الخارج، في الدفاتر التي لم تُدهش معلماتي كما اعتدن، صار القلمُ الضائع سببًا لبكاءٍ مكتوم، وصار الطلب مؤجّلًا حتى نهاية الشهر.

عرفت اليُتم حين توقفت رحلات الشام، أصبحت دمشق حلمًا مؤجلًا... الميزانية لا تسمح. لم أفهم كيف يتحوّل رجلٌ ميسورٌ في حياته إلى ظلٍّ مُثقَلٍ بالديون بعد موته. قالت جُمان: «عم بيقولوا إنو أبوكي مديون».

عرفت اليُتم حين انتزعت زوجة أخي من يدي الموزة في يوم عيدٍ، صرخت: «بسج، أكلتي وحدة»، كنتُ طفلة أبي المدللة، يعرف كم أحبّ الموز، يهدي إليّ صندوقًا كاملًا، واليوم... يستكثرون عليّ أكل الثانية، نظرتُ إلى الموزة المسلوبة، وفي قلبي شيء انكسر.

مرة أخرى انكسر قلبي في عيد ميلاد أماني، حين تبعتُ حليمة وهي تمسك علبة مغلّفة، طرقنا الباب بحماس طفولي للاحتفال، فتحت أماني الباب، الصدمة باغتتني حين سمحت لحليمة بالدخول، وأمام سخرية بنات صفنا المدعوات أغلقت الباب في وجهي.

وقفتُ على بابها فارغة اليدين، بلا هدية.. بلا وجه، وعدتُ أدراجي، أشهقُ بالبكاء. حين وصلتُ البيت، سألتني جُمان: «شوبكي؟»

أنكر: «تعرگلت وتعورت لم أخبرها الحقيقة».

ولم أقل لها أنّ اليُتم لا يوجع فقط، هو يجرح أيضًا.

تعاطفت حليمة معي، لكن ذلك لم يثنني أن أتغيّبُ عن المدرسة أسبوعًا، ظننت أن الغياب يرمّم شيئًا، لكن الجرح بقي، كندبة تذكّرني كلما نظرتُ داخلي، لفَقري... ويُتمي.

كبرتُ، وقصر المريول، كان عبد الله يضربني بالخيزرانة كلما رآني به. أسأل جُمان:

ـ متى بتفصلين لي مريول يديد؟

ـ ما ضالل شي، خِلصت السنة.

لكن السنة انتهت، ولم ينتهِ اليُتم.

***

يتامى صرنا، أنا وأمي.

ومنذ بداية ذاك العام والدمعة لم تفارق مقلتيها.

لا تسيل تمامًا، لا تجفُّ أبدًا، تخشى السقوط؛ لكنها تبوح لي بكلّ شيء. أدركتُ اليتم في صبرها الكبير، غبنها من تصرفات أَخَوَيّ عبد الله وعيسى، وحماقاتهما. لم أعد أسمع لقب بنت السورية من أبناء المنطقة فحسب؛ صار إخوتي أنفسهم يصدحون به في كلّ جدال أو موقف أو بلا موقف، طعنٌ يتكرر دون مبرر. ذات مرة، سألتُ جُمان، بارتباكٍ:

ـ صح جوازِج أحمر؟

ـ إيه مزبوط يا بنتي

ـ وآنا جوازي أحمر؟

ـ إيه مزبوط

ـ ليش هم يسموني بنت السورية؟

رفعت جُمان يدها تمسح حيرتي:

ـ معلش يا بنتي، ماحدا أحسن من حدا، كل الناس متل بعضا.

كالعادة كلماتها بلسمٌ، غير أنها لا تطفئ نيران وجعي.

أحيانًا، لا تكمن القوة في صخب المواجهة، لا في رفع الصوت وصدّ الهجوم لإثبات الحق المسلوب. كثيرًا ما يكون السكوت في وجه الظالم أكثر حزمًا، هذه سياسة جُمان. هادئة، مسالمة، نسمةٌ عابرةٌ تخشى إثارة الغبار... مغلوبة على أمرها.

لم تؤمن بأنّ الحقَّ يُنتزَع عنوة، ظَنَّتْ أنّ تجاهله هو السبيل الوحيد للنجاة. غُربتها عذر، ومرضها حجّة، أما قلبها... فمغلوبٌ على أمره:

ـ بخاف أموت وضلّك وحدك، ما حدا لحدا يا بنتي.

سلّمت أمرها للّه، استسلمت لقرار عبد اللّه عندما أعلن مباركته لزواجي من صديقه عبد الحي، وصفه باللگطة. قالت: «هوه خيّك الكبير».

غير أنّني لم أفهم سرعة ما حدث، طالبةٌ متفوقة، إحدى ألمع طالبات الصف العلمي، أحلامي تحملها أمّي أكثر مما أحملها أنا. أغلى أمنيّاتها تخرجي، دخولي الجامعة بمنحة تُخفف عنها أعباء الحياة مع وظيفة مرموقة، خلاصٌ لنا من كلّ ما أثقلنا. مع ذلك، رضِيَتْ فجأةً بتزويجي وأنا على بُعدِ عامٍ واحدٍ من إنهاء الثانوية العامة؟ والأغرب، مِمَّنْ؟ رجلٍ يكبرني بعشرين خريفًا، لفظَتْه بناتُ المدينة، ورماني القدرُ له قسرًا.

والأشد إيلامًا، أنّ أمّي، أكثرَ مِن صحبة المدرسة، تعرفُ نبضَ قلبي منذ طفولته، تغضُّ الطرف عن حبي لعصام، وتقبل بي زوجة «لعبود».؟!

***

صافازو

«صافازو»

لقبٌ أُضيف إلى سلسلة ألقابي المتناثرة: «بنت السورية، الجلفية، الطماطية» أسماءٌ التصقت بي، كما تلتصق الوصمة بجلد البشرة.

حين جاء دوري في لعبة الغواية، سألتني سميّة:

ـ إنتِ من تحبين؟

أجبتُ بلا مواربة:

ـ أحب صافازو.. عصام ولد خالي.

كأن ضحكاتهن صفعات على جدار قلبي، وتعليقاتهن شظايا يصعب اقتلاعها من الذاكرة. منذ تلك اللحظة، التصق بي هذا الاسم، كنيةٌ لا تفارقني.

لم أفهم يومها أن اللعبة لغزٌ، وأن الإجابات حبائلُ لا تُفَكّ إلا بحذر.

كان عليّ أن أبني حصونًا منيعة، أن أختبئ خلف أسماء نجوم السينما الهندية، أو أكتفي بأبي وأخي كما فعلت حليمة.

تسلّحن بحذرهن جيدًا؛ أحببن ممثلين بعيدين، أو أقارب بلا وجع.

أما أنا، غافلة، أفشيتُ سر قلبي.

القلب الذي رضع حب عصام، حبٌّ يشبه السماء. بعيدٌ كالمسافة بين غيمٍ وجبال، قريبٌ كأنفاسي. كلّ ذكرياتنا جسورٌ مقطوعة؛ لا بداية لها، ولا نهاية. كقصتنا! كنا نتعارك، نشتم بعضنا بألقابٍ لا جذور لها، بلا تفسير؛ كلمات تحمل من الغضب بقدر ما تحمل من الضحك.

ـ إنته صفازو!

ـ إنتِي ليزازو!

أهرب إلى حضن أمي، أختبئ كطفلٍ مذعور، يبكي دون أن يخوض حربًا بعد.

تسألني بصوتها المغموس بالأمان:

ـ شو بكي؟

سؤالها يلتف حولي كبطانيةٍ دافئة، لا أجد له طريقًا إلى شفتيّ. أرفع وجهي المبلل بالدموع، أشير بأصابعي الصغيرة إليه...

هناك، حيث يقف، يضحك.

ضحكته تهزّ قلبي الصغير. ليست سخرية. ليست شماتة.

شيء آخر لا أفهمه، (يوجع).

صافازو،

كان يمكنُ للكلمةِ أن تموتَ هناك، أن تضيعَ مع الأيام، لكنّها بقيت،

صدى يفيق كلّما تقاطعت نظراتنا، كلّما توهّمنا النسيان، كلّما عرّى الزمن هشاشتنا من جديد.

طفلة، يحملني بين ذراعيه بقوةٍ تفوق عمره، يرفعني عاليًا، يداي القصيرتان تضربان صدره احتجاجًا. أبكي، أصيح، أشتمه بطفولةٍ عاجزة، صوتي مرتجفًا: «صافازو»! يحب أن يثير فوضاي، يراني أتمرغ في الغضب كعصفورٍ اختلّ توازنه. يسابقني في باحة الدار، يجعلني أركض خلفه، أتعثر بقدميّ الصغيرتين، يسرق دميتي، يخفيها خلف ظهره، يتركني أبحث عنها بعينين غاضبتين، يمدّها لي أخيرًا، متظاهرًا بالندم، أرميها في وجهه، أبكي من جديد، يسخر مني: «ليزازو أم دميعة».

حين أغفو، يتسلل إليّ كنسمة، يخطّ على وجهي بأصابعه المبللة حروفًا من ماء. أفزع، أهرع إلى أمي، يشقّ الطريق قبلي، يلوذ بها، وعلى ملامحه قناع براءةٍ طازجة، كأنّه قبل لحظة لم يكن يقهقه منتصرًا.

نكبر معًا، لا يفصلنا إلا وهمُ السنوات الأربع. لعبتنا لم تكن دميةً أو سيارة، لعبتنا مطاردةُ الغيظ: ندفع بعضنا إلى هامش الانفجار، ثم نعود كأن شيئًا لم يكن، كأن الحياة كلها تجربة صغيرة على الهزيمة والصفح، كلها تحدٍّ صغير بين طفلين لا يدركان كم ستبتلعهما الأيام دون رحمة.

في كلّ مرةٍ، حين أبكي أكثر من اللازم، حين تتكسر الكلمات في حلقي، حين أشكو إلى أمي وأبي، يقترب عصام، يمدّ يده الصغيرة، يربت على كتفي، يهمس معتذرًا بصوتٍ خافت. أشيح بوجهي، يضحك، يعبث بخصلاتي المتموجة، يقرص خدي.. ثمّ.. رغم كل شيء، رغم الدموع والغضب، أجدني أضحك معه.

كبرنا، غدت الكلمات فتاتًا، ضاعت في زحام الحياة، وبقيّ المعنى واضحا، بلا حاجة إلى شرحٍ أو تأويل، بلا اعتراف من كلانا.

***

في القيمرية... كلُّ حجرٍ في بيتِ خالي يُقسم أنه رآنا.

ذاك البيت، جوهرةٌ دفينةٌ في قلب الحيّ. ما إن تخطو عتبته، حتى يُفتح لك فناءٌ كصدرِ أمّ؛ تتوسّطه نافورةٌ، تحرسها أشجارُ النارنج، والنعناع، والرياحين، والياسمين الدمشقيّ.

جدرانٌ بيضٌ بخطوطٍ سوداء، نوافذُ مقوّسةٌ تطل على القلب، وأرضيةٌ من رخامٍ أبيضَ وأسود، كشطرنجٍ ينتظرنا للعب.

في الركن مكتبةٌ صغيرة تحتضن رسائلَ لم نكتبها، واعتذاراتٍ وصلت متأخرة. هناك كنتَ تقرأ لي بصوتٍ فيه رجعُ حنين، نزاريات، قصة حب مجوسية، صفحةً بوليسيةً تُخفي قاتلها، كأنك آخر حكواتي في مدينةٍ أطفئت قناديلها.

الكتب التي تُثقل رفوفك لم تكن كلها للعشّاق..

كنتَ تغوص في التاريخ كما يغوص الغريب في جذوره، تحفظ أنساب القادة، خرائط الفتوحات، وتطيل التحديق في سطور الخلافة، كأنك تبحث عنك في زمنٍ لم يُولدك.

أنظر إليك، وأدرك أنني لا أحتاج إلى القصص، فأنت حكايتي، وكلّ ما لم يُكتب لي بعد.

بعد الغداء، تهمس لي:

ـ بدك بوظة؟

أبتسم. أعرف أنها دعوة إلى رحلةٍ لا تنتهي، إلى سوق الحميدية، نشتري البوظة بالفستق الحلبي، ثم نسلك الباب الشرقي نحو كنيسة المريمية، خطوةً خطوة، نحو مقهى القشلة، هناك، في الزاوية معبدنا الخفي، نخيط من الوقت تمتمة، نخبّئها في سقف الذاكرة.

دمشق العرّافة حفظت أسماءنا في الشقوق كأسطورةٍ عشتار وتموز.

لولو، أول من ناداني بها كان صوتك. اسمي في فمك موسيقى، تشبهك.

ـ لولو، عندي إلك مفاجأة، هلأ بتشوفيها.

مسافة خطوات، محلّ ألعاب صغير، لافتةٌ ملوّنة، «لولو كاتي».

قرأتُ الاسم المكتوب بأحرفٍ ملوّنة، ونظرت إليك، كنتَ تراقب دهشتي بضحكةٍ مستفزة.

ـ بتعرفي تقري؟ يتابع

ـ المحل عَ اسمك! يالله اختاري لعبة ع ذوقك.

أشرتُ إلى دُبٍّ زهريّ، اشتريتَه فورًا.

ـ بيشبهك!

ضحكتُ وأنا أضربك بخفّة، أشتمك:

ـ صافازو!

تدفعني، تردّ الشتيمة:

ـ ليزازو!

تحاول أن تقذفني بعيدًا عنك، فأمسك بك بقوة، ليسقط قلبي فيك بقوةٍ أكبر، أعمق، لأبعد مما تخيّلت.

ينادونك أبو الصوص، لكنني تمرّدت على الألقاب. بالهمْسة التي لا تُقال للجميع، نفيتُ عنك اللقب، ووهبتُك اسمًا لا يعرفه سواي:

«صوصي... مالتي».

لم نسجّل اسمينا على قفلٍ عتيقٍ يُلقى مفتاحه في مرسى العشاق؛ لكنني أعلم، كما تعلم أنت، أن اسمك معقودٌ على طرف لساني، وأن ملامحك تجري في دمي كما يجري الماء في بحرٍ لا يعرف الجفاف.

مفتاحنا هو القدر نفسه؛ تحرص عليه يدٌ واحدة، وحدها القادرة على فكّ أسراره. على جمعنا... أو تبديدنا في المدى.

***

في أولِ مكالمةٍ بيننا بعد طلاقي، جاءني صوته معاتبًا:

ـ ليش، ليش يا لولو؟

ارتدَّ صدَاها في صدري قبل أن أستوعبها، أو ربما تهيّبتُ الاعتراف بمعناها. لم أرد.

كرر: ليش؟

فررتُ من الإجابة بسؤالٍ، كمن يشعلُ نارًا.. يحجب دخانها رؤيته:

ـ ليش انفصلت؟

احتشدت السنون في صوته دُفعةً واحدة، تساقطت متدحرجة من قمة جبل:

ـ ليش تجوّزتي؟ ليش ضيّعتي حالك؟ شو هالتخبيص؟ ليش كلّ هالشي صار من البداية؟!

أحجارٌ منسيّة سقطت عَلَيّ دُفعةً واحدة، كيف لم أنسحق تحت ثقلها؟ عتابٌ مؤجلٌ، مؤجّلٌ إلى حدٍّ أنّني نسيت أنّه يجب أن يُقال. أعلم أنّه يستحق جوابًا؛ لكن من يُلملم الرد؟ وأنا نفسي فتات ظنون.. تقضمني الأسئلة ويذروني الهوان.

بلعت رجفة صوتي، جمعت شتات كلماتي:

ـ تعرف ظروفنا. بعد موت بابا ما كان بيدي شي.. غصب عني كلشي صار.

سقط الصمت بيننا، متأرجحًا على حافة المكالمة الغالية. خرسٌ بلا نفسٌ. قبل أن ألتقط أنفاسي، امتدت يد أمي جُمان، أخذت الهاتف كما يأخذ البحر موجه، غاب صوته، وغاب المشهد.

***

بين الحصنِ والمطرقة

منذ غاب أبي.. والفرح يمرّ بي كعابر لا يلقي التحية؛ حتى جاءت جُمان. أخبرتُ أمي برغبتي في إكمال دراستي الجامعية، أبت كلماتها إلّا أن تكون دعاءً: «اللّٰه يدبّرها». هذه الجملة بدايةٌ لأمل كافٍ، خطوة نحو حياة لم أكن أظن أنني سأجرؤ على استعادتها.

في أيلول من العام نفسه، وقفتُ على عتبة الحلم، في مقعدٍ جامعي يليق بحلمي. أربع سنوات معلقة بين دراسة وعمل، مطمئنةٌ على ابنتي في عهدة أمي.

حصلت على مساعدة اجتماعية تُمنَح للمطلقات، بالإضافة إلى عملي مساءً في معهد تعليمي. مرحلة مرهقة بكل تفاصيلها، أشبه بماراثون طويل لا أبصرُ نهايته، غير أنني كنتُ مصمِّمةً على اجتيازه.

في وقتٍ أحاول فيه رسم ملامح مستقبلي المهني، جُمان تكبر أمام عيني، تمدّ يدها الصغيرة، وتعيدني إلى عوالم طفولتي المفقودة.

طفولتها شراعٌ صغيرٌ أعادني إلى بحر ذكرياتي مع أبي، وذكرياتي مع عصام، ظننتُ أنّ أمواجه هدأت إلى الأبد.

أحاول أن أستعيد منها ما يسعد ابنتي. أربّيها كما لو أني أدوّن درسًا. تزامنت طفولتها الأولى مع تخصصي الجامعي، وصارت أمومتي نموذجًا مدروسًا.

علمتني ضحكتها أنّ الحياة يمكن أن تُعاد صياغتها؛ ضحكاتها موسيقى تنفخُ في روحٍ مطفأة. خطواتها المتعثرة.. ألعابها البسيطة.. أعادت لي متعة الاكتشاف بنضج أمٍّ وبراءة طفلة.

حين تعبثُ بأصابعها الصغيرة في وجهي، أشعر بأنها تعيدُ رسم ملامح مني كنتُ قد بعثرتها في خربة عبد الحي. كل لحظة معها نافذة على حياةٍ أخرى مليئةٍ بفرحٍ غضٍّ بدأت أعرفه.

كبرنا معًا.

أنا أرمم طفولةً أتحسرُ عليها، وهي تبني طفولتها بما تبقى من قلبي، طفولة أغزلها بما حُرمت منه. نضحك، نركض، نرسم طقوسَ عائلة صغيرة وسط عالمٍ لا يشبهنا.

كثيرون تقدّموا لخطبتي، أغلبهم من معارف أخواي عبدالله وعيسى. جاؤوا يذكّرونني بلقبي الجديد، كأنني سلعة على منضدة المساومة، خيار ضمن خيارات أخرى، قصتي لم تكن إلّا عنوانًا مشؤومًا يعلقونه عليّ دون أن يكترثوا لما تخفيه خلفها. المطلقة تليق بمن لا يجد غيرها.

***

شيء في أخي عبد الله انكسر مبكرًا.

كبر في بيتٍ ناعم، لكنّ قلبه تكلّس. عكس أبيه تمامًا، لربما استعار قسوته من أمّه وأهلها.

كان في عمر أمي حين تزوّجها أبي، وأمه، ضرتها الأولى تهمس له بالحقد عليها، وتزرع فيه الغيرة. لم يحتمل وجودها، ولا وجودي.

طفلة تنام في حضن أبيه، تُنادَى لولوة المدلّلة. صار يكرهني، ويكره أمي دون أن يصرح بكراهيته أو يسمّيها باسمها.

يضرب زوجته لأنها لا تشبه أمي. يصرخ في وجه أطفاله لأنهم يشبهونه، وها هو يعود إليّ... يمشي خلفي من المعهد إلى البيت كظلٍّ مهزوم، يرفع حاجبه بلغة الابتزاز نفسها:

ـ صاحبي طلبج مني... عنده بيت، ووعدني العرس جريب.

كأن شيئًا لم يتغير. كأنني لم أكن صفقة قبض ثمنها من عبد الحي. توقفت، ارتجف داخلي، لكنني لم أضعف. خرجت الكلمات من فمي لا تشبه خوفي:

ـ لن أُباع مرة أخرى، ولو كلفني ذلك الشارع.

شتم، هدّد، اقترب... وأنا لم أتحرّك، ولم أبك.

الطفلة التي كانت ترتجف منه، صارت امرأة لا تبكي.

ولن تُسلخ من جديد. لم أنتصر عليه، انتصرت على خوفي منه. أنا الآن صوت الغضب المؤجّل، والمرايا التي كسرتها تنكسر عليك. ولو فكّرت ببيعي مرة أخرى... سأحرق البيت كلّه.

لم تكن ثورة لحظة. كانت انتفاضة قلبٍ مشحونٍ بسنين من القهر؛ انتقامًا صغيرًا، لا يخصّني وحدي، يخص أمي، أيضا، وأحلامنا التي سُرقت قبل أن أملك صوتًا.

رأيته مشدوهًا... كأنّه يراني أخيرًا.

شعرتُ بقوةٍ لم أعرفها من قبل. لم يعد الغضب يشتعل، هو يبرد... ويتحوّل إلى إدراك: أنا لم أعد محطة في حكايات غيري.

هذه المرّة، ولدتُ بيدي. من رمادهم. ولدتُ لنفسي، لأمي، لحبٍّ مات واقفًا، ولطفلةٍ تنتظر مني هذه القوة.

غادر، ووجهه مشوّه بالخسارة، وبقيت أنا.

***

قبل أن يشتعل فتيل الثورات في ربيع 2011، جاء تعييني كغصنِ زيتونٍ في يدِ السماء. مكافأة مؤجّلة.. فور تخرّجي من الجامعة التحقتُ بمدرسةٍ ابتدائية كاختصاصية تربية خاصة.

هناك.. وجدت نفسي بينهم وبين جُمان. عالمٌ صغير انفتح لي من خلالها، عالم طفولي مدهش، لا يُدرك سحره إلّا من افتقده يومًا. مليءٌ بأصواتٍ تُشبه الغناء، برائحة طباشير، وعيونٍ لا تعرف الخبث.

ولأول مرة؛ شعرتُ أن الحياة تبتسم لي دون شرط، تعيد لي جزءًا مما سُلب.

أعمل وادّخر بصمت، كمن يخبئ حلمه تحت الوسادة. أريدُ أن أطير بأمي التي أنهكها الحنين، وبجُمان التي لم ترَ الشام إلا بعينيّ.

ثلاث تذاكر، حملتنا إلى الذاكرة.

إلى تلك الزوايا، في بيت القيمرية، دخلنا بيت خالي: أنا، وأمي بعكازها، وجُمان بملامح ثمان سنوات؛ العمر نفسه الذي غادرتُ فيه هذا البيت ولم أعد.

كانت الزيارة الأولى بعد ثمانية عشر عامًا من الشوق، من طرقٍ مؤجّلة، وذكرياتٍ نمت في المنفى بلا جذور، كأشجارٍ اقتُلعت من أرضها... لكنها ظلّت خضراء، تتشبّث بالحياة.

رحلةٌ حشدتُ لها من المشاعر المتراكمة، تجهيزًا نفسيًا لما لا يُحصى ولا يُعد، لما لا يُرى ولا يُقال. استنزفتني كلّي.. كنتُ أحمل الجُمانتين معي، وقلبًا لم يكفَّ يومًا عن الارتجاف إلى وطنٍ لم أغادره تمامًا.

في صدري، لم يكن الحنين شوقًا ناعمًا يربّت على كتفي، ولا شعورًا هادئًا يُحتمل. كان وحشًا جائعًا، ينهشني طوال هذه السنين، كلما حاولتُ إخماد صوته ازداد صخبًا، وكلما ظننتُ أنني تآلفتُ مع البعد، تجذّر في المسافة أكثر.

أعود، لأتلمس أثر خطاي الصغيرة، أتأكد من أنّ الماضي لم يكن وهمًا، وأنّ الأزقةُ التي عبرتها بطفولتي لم تُمحَ، والأبواب التي تركتها مواربةً لم تُغلق تمامًا، والطريق ما زال يحفظ خطواتي الأولى، عشقي الأول والوحيد ولو دون بوح.

بيت القيمرية، كلّ شيء فيه بدا هادئًا ومهملاً، كجدران متصدعة ومنسيّة. أخبرنا خالي، بصوتٍ مكدود، أن عامر وأهله في مصيَف رأس البسيط، أما عصام فقد غادر إلى العراق بعد سقوط الموصل.

سقط قلبي قبل أن يكمل عبارته:

ـ شو دخل عصام بسقوط الموصل خالو؟

ـ ما دخلو، هيك شباب من الحارة راحوا وأخذوه معهُن.

تدخلت أمي:

ـ هيك تخليه يروح والأحداث يالليّ كليوم عم نسمعها بتشيب الراس؟

تنهد كمن أرهقه الموت، فأصبح حديثه عنه عاديًا، عابرًا:

ـ كلو متل بعضو؛ إذا ضل هون ولا راح لهنيك، ما في فرق، شبيحة هون، شبيحة هنيك، الموته وحده.

ردّه علق بذهني. كيف لعصام، عاشق دمشق، أن يملّها؟ أن يترك حجارتها المبللة برائحة الياسمين، ويختار موصلًا مزقتها الحرب؟ أغلقَ كل منافذ النجاة التي فتحتها له أخته عبير، حين هاجرت مع زوجها إلى السويد. كم توسلت إليه أن يتقدّم بطلب لجوء، أن يُنقذ نفسه وأباه، لكنه عاند.

«أنا هون بدي موت»، قالها والده مرارًا بعد رحيل أمه؛ لا معنى للحياة إلّا بين جدرانٍ شهدت أعمارهم. وكذلك عصام، ينكر فكرة الهروب.

إذن، ما الذي تغيّر؟ ماذا انكسر فيه ليرحل؟ هل أنهكه الموت المتسلّل في زواياها؟ أم أغوته عقيدة الموت هناك؟

أسئلة تلحّ، والإجابات لا يحملها الآخرون.

الإجابة هناك... في رأس عصام، في مكانٍ قصيّ، لا حيلة لي للوصول إليه.

***

تلك السفرة أشبه بقفزةٍ ناحية لا شيء، جئتُ أحمل قلبي إلى بيت طفولتي، أبحثُ عن سلامٍ يليق بذاكرتي، عدتُ محملةً بوجعٍ ثقيل، الموصل لم تسقط في الأخبار على وجه الحصر، هي سقطت فوق روحي.

الأوجع من ذلك ما تلاها؛ في العام ذاته، ماتت أمي. هوت بجلطةٍ قلبية، سقطت في العناية المركزة، فقدتْ الوعي بي، تمسكتُ بها. وتمسكت بقراءة القرآن أتهجّى الرّجاء بين السطور، أراقب صدرها يعلو ويهبط، أحصي أنفاسي الأخيرة معها.

وحين اختارها القدر صرتُ أبكي وأنا أحمد اللّٰه، حمدته كثيرًا؛ لأنه أمهلني ثلاثة أشهر أملأ عيني منها، أتدرّب على فقدها، لا كما فقدتُ أبي، مباغتًا، جارحًا، دون أن أهيئ نفسي لليتم.

تمرُّ الأيام أقسى مما أحتمل، كتلةٌ تنزلق فوق صدري. كلّ زاوية من البيت أصداء وداعها، بقايا صوتها تهمس، في الأثاث، في رائحة ثيابٍ لم أجرؤ على طيّها بعد، دارٌ لم تعد تعرف الدفء. كلّ شيء هنا يكرر أفولها، يؤكد أنّه نهائيٌّ لا رجعة فيه.

أما عصام، فغيابه أشدُّ وحشيّة، ليس له شكلٌ واضح، ليس موتًا فأرثيه، ليس حياةً فأرجوه. هو غيابٌ بلا نهاية، مجهولٌ يتسع في صدري، لا يترك لي مهربًا. هاتفه مقطوع منذ زمن، أرقامُه في الموصل، سرٌّ لم أعرفه، لم يكن بيننا سوى بريدٍ إلكتروني، عتبةٌ وحيدةٌ تطلُّ على المجهول. أكتبُ له كما لو كنتُ أُودِعُ قارورة في بحرٍ لا ساحل له، أحشو الرسائل بالخوف، والأمل، والأسئلةِ، بدموعٍ لا تجد طريقها خارج أصابعي. في كلّ مرّة أفتح

البريد، أنظر طويلًا إلى صندوق الوارد أستجدي ظهور اسمه، أتوقع أن يطلَّ عليَّ منه، ولو بغيابٍ أقل قسوة.

كلما فاض بي الشوق، أتصل بخالي؛ أبحثُ عن عصام في صوته، في تنهيداته، في تردد كلماتٍ لا تقول شيئًا. خالي حذرٌ، كلّ حرف قد يكون شركًا، الهواء نفسه جاسوسٌ علينا. يجيبني، يختنق صوته في الحلق، يتمتم بكلماتٍ باردةٍ من مسافة بعيدة، بعيدة جدًا عن لهفةٍ أحتاجها:

ـ ما بعرف، لا تسأليني، لا تحكي كتير، الوضع هون...

انقطاع المكالمة وحده من يكمل الفراغ.

أعلم أنّه يخاف، الخطوطُ مراقبة، الموصل لم تعد مدينة، الموصلُ فخٌّ، والكلام يكلف أكثر مما نحتمل.

أحتاجُ إلى كلمة، إلى شيء يبقي عصام على قيد الوجود، ولو بالكذب. أحاول أن أصدّق أنّ خالي لا يعرف شيئًا، إلّا أنّ سكوته يقول كلّ شيء. أعرف هذا السكون، هو ما يسبق الجُرح حين لا تجد له ضمادًا، ما يحيط بالأخبار السيئة، كظلٍّ ثقيل لا يرحل. ذلك السكون نفسه الذي سبق خبر موت أمي، كأنّ العالم بلع صوتها، وتركني أتهجّى الفقد وحدي.

***

رحلت أمي،

تركتني فريسةً لوحشةٍ باردة، أواجه إخوةً لا يعرفون الرحمة، وزمنًا يقضمني بأسنانه. لم تمضِ أيامٌ على دفنها، حتى تكشّرت أنياب؛ عبد الله وعيسى. لم أتوقّع أن تنكشف وجوههم سريعا هكذا، كأن موت أمي كان الإذن لهما بالانقضاض.

صراخهما يمزّق جدران البيت، يطالبان بخروجي وطفلتي من دارٍ عاشت فيها أمي وماتت مسالمةً، نسمةً عبرت الحياة دون أن تُحدِثَ جلبة.

كلّما رفضتُ عريسًا، ارتجّت الجدران، كأنني عارٌ يجب التخلص منه. الشتائم تطير كالرصاص الطائش، وصوت عبد الله يجلجل الليل:

ـ عندج راتب، تأجّري شقّة وادلفي.

ـ لمتى؟ زري عنا! هذا مو بيتج!

كأنني دخيلة، كأنني لم أولد بين هذه الجدران، ولم أشاركهم يومًا خبز الطفولة وملحها. لا أحد يتذكّر أنني، مثلهم، ابنة هذا البيت.

أمي، التي أفنت عمرها في خدمتهم، ما كانت لترضى أن يُلقى بابنتها إلى المجهول. لا غرابة، فوصايا الأموات تُنسى سريعًا.

عينان دامعتان من زاوية الغرفة: حليمة...تنكمش، تخشى أن تطالها نيرانهم إن اقتربت، لكنها تهمس، تشدّ على يدي خُفية:

ـ لاتطلعين، ما عليج منهم.

البيت يضيق، يلفظني كما يلفظ البحر غرقاه. الليل طويل، والوحدة ثقيلة، وصوت أمي يتردد في رأسي؛ تحاول أن تخبرني بشيء، أن تواسيني، لا أسمع سوى وجوم يشبه قبرها، يوشك أن يصبح قبري أيضًا.

لكنني بقيتُ أقاوم، أتشبث برائحتها العالقة في زوايا البيت. أضم طفلتي إليّ، أخبئها من الرعد خلف صدري، وأحكي لها عن نساءٍ مشين فوق الجراح، بطلاتٍ عشن بطشًا أكبر من هذا، وانتصرن عليه بصلابة؛ جين إير، ليز بينيت، سكارليت أوهارا، وآنا كارنينا، بطلاتٍ لم تهزمهنّ العواصف.

عيناها تلمعان حين أقول:

«آنا وانتي، بطلات مثلهم».

تبتسم بحماس، ولم تكن تدري أنني أحاول أن أوقظ شجاعتي من تحت الركام، قبل أن أوقظها في عينيها.

أفتح بريدي الإلكتروني آلاف المرات، أبحث بين الرسائل عن صوت عصام، أو أي كلمة تُشفي الغليل.

أمي، عمّته، لطالما أحبها كأمه بعد يتمه؛ انتظرتُ عبثًا رسالةً تحمل عزاءً سريعًا، من باب الذوق، رسالةً تطفئ نارًا استوطنت صدري، وتهدهد الوحش الذي استوطن داخلي. لكنّها لا تصل.

أتابع أخبار الموصل، والجيش العراقي الذي يتقدم بمعارك ضارية. لا أفهم عصام، ما الذي دفعه ليكون هناك؟

لِمَ يختار أن يكون هناك؟ أهو معهم أم عليهم؟ لا أعرف.

كلّ ما أعرفه أنني أعيش قهرًا مزدوجًا: فقدٌ من جهة، ورحيلٌ مفاجئ لا أجدُ له تفسيرًا من جهةٍ أخرى.

عصام... جزءٌ لم يُقتَطَع مني، لم يكن زوجي، لم يكن شريكي؛ لكنّه

أقرب. بعد الطلاق، كان هناك مسنجر: كلماتٌ مقتضبة، حديثٌ جاف؛ لكنّه كان يحدث، كان يكفي ليُبقي قلبي معلقًا بخيطٍ رفيعٍ من الأمل.

أيامٌ غاب فيها التمستُ له أعذارا تُبرئه من الخذلان: ربما انقطع الإنترنت لديهم، ربما هاتفه معطّل، ربما أنا من انشغلت بالدراسة والامتحانات. أقنع نفسي أنّ شيئًا لم يتغير، وأنّ الصمت ليس قطيعة، وأنّ المسافات ليست سدودًا.

أبحثُ عن أيّ شيء يجعلُ غيابه أقل وجعًا، ويجعل المسافة بيننا أقل برودة؛ لكن كلّ الأعذار نفدت، لم يبقَ سوى الغصّة، جاثمةً في حلقي، باردةً كحقيقةٍ لم أعُد قادرة على إنكارها.

أجوبُ صفحات الروايات التي قرأتها مرارًا وحفظتها، أبحثُ عن مهربٍ من طيفه المتسلل بين السطور. أحاول أن أنسى، أستبدل بحضوره أبطالَ الحكايات، فأجدُّ كلّ سطر مشبعًا به، كلّ قصة تحاك لأجله. أعيش أصناف الغرام معه، كما تموجُ بها القصص، أستدعي شعورًا يعيدني للحياة، يجعلني أهيمُ من جديد، بطلةً لقصةٍ خيالية أو مشهدٍ في فِيلم رومانسي.

بغياب عصام، وموت أمي.. أصبح الواقعُ قاحلا، جافًّا، لا يحمل لي غير الوحشة.

رحيلُ أمي جرحٌ أوّلُ شق صدر ابنتي، كأنّ الحزنَ ميراثٌ يُسقى مع الحليب، وكأنّ اليُتم عبرني إليها دون أن أشعر. جرحٌ حاولتُ أن أخبئه عنها، فأنا الأكثر إحساسًا بغبن الموت على قلب طفلةٍ في سنها، فشلت، الألم أكبر مني.

موتُ أمي أولُ سقوطٍ لي معها، تلاه سقوطٌ أكبر.

الحياة قررت أن تفتحَ أبواب جحيمها دفعةً واحدة. خدشٌ في براءتها تسببتُ أنا به، ربما دون أن أدري، بدا عميقًا بما يكفي ليتركَ أثرًا لا يندمل. عاقبتني عليه بصمتها أولًا، ثُمّ بجرحٍ أكبر، أرادت أن ترد لي الألم مضاعفًا، أو ربما أرادت أن تُفهِمَني كيف شعرت حين شوهتُ عالمها النقي. عيناها تقول لي كلّ شيء، نظراتها تحمل اللّوم والخذلان، أنا من خذلتُها.

***

لم يُشعل أحد في قلبي الجنون كما فعل عصام، حتى التقيتُه.

لقاءٌ سريعٌ، عابرٌ، لكنه علق في ذاكرتي. مثل بداية قصيدة أو فصل جديد في رواية. يومها، وقفت جمان على مسرح المدرسة، تتسلم جائزة القصة القصيرة على مستوى مدارس البحرين. شعرتُ بالزهو، وكأنّ العالم كله يصفق لها.

اقترب، هنّأني، بابتسامةٍ دافئة. تهنئة رقيقة أعادت ترتيب المسافة بيني وبين الحياة. تحدّثَ عن جُمان بحماس، أعجوبةٌ صغيرةٌ أدهشته.

امتدح موهبتها الفريدة؛ سنّها لم يتجاوز الثامنة، لكنها بدت كمعجزةٍ.

كلماته تنساب وتنسكب بسلاسةٍ فيّ. تحاول أن توقظ شيئًا خاملًا في داخلي. ربما، في تلك اللحظة، أردتُ أن أصدق أنني ما زلت امرأة صالحة للحب، يُمكن أن تَحِبَّ وتُحَب. كنتُ أحتاج إلى هذا الشعور وأفتقده.

حين طلب أن نتواصل، عبر البريد الإلكتروني ورسائل الواتساب،

وجدتُ نفسي لا أُمانع. كانت تلك أول استجابة لحنينٍ لم أسمِّه بعد؛ نافذة صغيرةٌ فتحتُها في جدارٍ موصدٍ لسنوات.

«علي إبراهيم»، رجلٌ يشبه فصلًا نادرًا في كتابٍ لا يُعاد طبعه. أخصائي في وزارة التربية والتعليم، تخصصه الحقيقي هو الكلمة. مطلقٌ مثلي، يملك ما لا يُشترى: عقلٌ عامر، وروحٌ تعلّمكَ كيف تنبت الألفة في أرضٍ غريبة.

حين يتحدّث، تُصبح اللغة شعرًا، والحكمة ماءً رقراقًا، كأنّه موسوعة تمشي على قدمين، يروي الأدب كما يروي العاشق قصة الوله الأول، قديمه وحديثه، كلاسيكياته وحداثته.

كنتُ أتابع حساباته بشغفٍ لا أعترف به، يتنقل بين موضوعاتٍ شائكة، يُضيء بها زوايا مظلمة في رأسي. كلّ سؤالٍ له جواب، كلّ حيرةٍ أمامه تجد مفترقًا آمنًا. الحقيقة كنتُ أبحث في حديثه عن يقظةٍ صغيرة، غافيةٍ داخلي، لا عن إجابةٍ لسؤال.

عرف كيف يترك بصمةً في أيامي؛ وكيف يُحوّل الوصال إلى مودة، والمودة إلى ألفة، ثم إلى شيءٍ يشبه الحب، دون إعلان، فقط شعورٌ نضج بهدوء. يفاجئني في المدرسة، يرسل لي باقاتٍ من الورد في كل مناسبة؛ يوم المعلم، يوم ميلادي، عيد الحب، أيّ حدثٍ صغير أو كبير، دائمًا هناك وردٌ يحمل اسمه. أول باقة وردٍ تسلّمتُها كانت منه. لا أعرف إن كنتُ وقتها شعرتُ بدهشة، أم بدفء، أم بشيءٍ صغير بدأ يتحرك ببطء جهة قلبي.

حين ندرك أنّ هناك من يفكر فينا بطريقةٍ لا نشبهها؛ لكنها تعنينا.. نشتبه في مفهوم الحب.

صار علي منارةً في بحري العاصف؛ نقطةَ هدوءٍ صغيرة وسط العاصفة. مع كلّ تهديدٍ، مع كلّ ليلةٍ أضم فيها ابنتي كدرع مهترئ، أخذتْ فكرة الهروب تتسللُ إلى ذهني. الزواج بدا لي وقتها مخرجًا جيدًا، خلاصًا من جحيم لعناتٍ تُحاصرني. علي إبراهيم يشبه ذلك الباب المفتوح على أفقٍ جديد، أفقٍ لم أكن أجرؤ على تخيله، في تلك اللحظات صار طوق نجاةٍ أخير.. قبلت به. حينها وجدتُ نفسي أخون رجلاً لم يقل لي يومًا: «أحبك».

***

أصحو كلّ صباح كآلةٍ دؤوبة، أُهيئ نفسي وطفلتي ليومٍ جديد في مدرستها ـ محط دوامي، مدرسة طفولتي، قريبة بما يكفي لأن نسير إليها دون عناء. أقطع المسافة بين الماضي والحاضر مع كلّ خطوة، أرافقها إلى الصف، أعود إلى صفي لأبدأ يومًا آخر من مسؤولياتٍ لا تنتهي.

أنهي دوامي معها، نعود إلى البيت، أخلعُ عنّي قناعًا لأرتدي آخر. وبين دفاترها ودفاتري، أطبخ الأيام، أصمم الوسائل، أرتق التعب.

يحلّ المساء، أحممها، ألبسها دفئًا، أقرأ لها حكاية قصيرة عن عالمٍ لم ندخله بعد.

تنام هي، وتبقى وحدتي مستيقظة.

هناك.. في العتمة، أتصفحُ بريدي مراتٍ لا تُحصى، أُلقي برسائلي كلّ ليلة في بريدٍ لا يُفتَح، أترقب معجزة. أبحثُ عن ردٍ، عن كلمة، عن إشارة تدل على أنّه ما زال يذكرني، لا رد، لا بريد قادم.

تثقل وحدتي، أفتح نافذتي مع علي، نتسامر، نبوحُ بما نعيشه في حاضرنا الجديد. تفاصيلُ صغيرةٌ تتشابك بين كلماتنا، أحلامٌ نرسمها معًا بخطوطٍ خجولة، توقعاتٌ لما ينتظرنا بعد إعلان خطوتنا المقبلة. حديثنا أشبه بملاذٍ أخير في أيامٍ متشابهة، تمنحني كلماته جرعاتٍ من طمأنينة تملأ مساحة انتظاري لمعجزةٍ قادمة.

سألني ذات مساء بنبرةٍ مهتمة:

ـ ليش ما تسجلين جُمان في مركز الموهوبين؟

أصرّ على أنها طفلةٌ فريدة، يليق بأن يكون لها مساحة بين المتفوقين والمبدعين. أخبرته حينها أنّ المدرسة كررت عليّ الطلب نفسه، وألَحَّت كثيرًا فاعتذرت. شرحت له بصوتٍ يخبئ شعور العجز: ما عندي سيارة، وما أگدر أسلم بنتي لسواق غريب. المحرق بعيدة.. أخاف عليها.

ردّ بثقة: «بسجلها بنفسي. باخذها المركز كل اثنين وأربعاء وأرجعها.. لا تحاتين».

وافقتُ، شيء ما بداخلي أراد أن يطمئن، أخيرًا كان هناك من يحمل معي عبء التفاصيل الصغيرة. لم أفكر كثيرًا، ربما كنتُ منهكةٌ بما يكفي لأتجاهل أيّ تساؤل أو قلق.

الأمر أشبه بسقوط روحينا معًا في هاويةٍ لا قرار لها. في يومٍ أظن فيه أنني أمدّ يدي إليها بالبهجة، كنتُ أفسح الطريق لعاهةٍ خفيّةٍ تتغلغل في أعماقها.

جُمان فرحةٌ في البداية، طفلةٌ تحملُ النّور في عينيها الصغيرتين، تعودُ

كلّ مساء بحكاياتٍ من المركز، وثناء المدرسين عليها، فرِحة، ضاحكة، العالم يحتضنها برفق. رويدًا رويدًا، بدأ النور يخفت. تنسحب من فرحتها، تطلب مني البقاء بقربها، أن نبقى في المنزل، أن نذهب معًا إلى الحديقة، أن نعيش لحظاتنا بعيدًا عن كلّ شيء، غيرّ أنني كنتُ أريدُ لها التميّز، أن تتطور موهبتها، فألحّ في دوامها في المركز.

***

صارحتها بنيتي الزواج، كنتُ أبحث عن ضوء أخضر، عن خيطِ نضجٍ صغيرٍ في طفولتها، ظننت أنّها ستفهم. احمرّت وجنتاها، واغتسلت عيناها بالحيرة وبكت. حسبتُه رفضًا لرجلٍ سيقتسم حضني معها. همستُ لها:

ـ أحتاج من يحميني.

صرخت:

ـ وآنا من يحميني؟

حاولت تهدئتها، أشرح لها أنني سأحميها، علي سيصبح درعي ودرعها. لأولِ مرّةٍ، امتدت يداها لتصفعني، تصفعُ وجهها. تصفعُ كلّ شيء تطاله. كررت الصفعات، تبكي:

ـ اتباعدي عني، ما أحبج، ما أحبكم.

في محاولات متكررة يائسة احتضنتها.. نفرت مني. وجودي لتهدئتها يثيرها أكثر. انسحبت، تمنيتُ أن تهدأ؛ لكنّها لا تهدأ.

في اليوم التالي، حين رفضت الذهاب إلى المدرسة، جلستُ بقربها، أمسكتُ يدها المرتعشة، قلتُ بصوتٍ مبحوح:

ـ جُمان، خلاص. إذا زواجي هو سبب دموعج، انسي السالفة. ما بفكر بالزواج أبد، بس أرجوج تهدأين.. بنعيش آنا وإنتي، مثل ما كنا، ما أحتاج شيء غيرج صدگيني.

ضممتها إلى صدري، نبكي، نحاول أن نمحو وجعًا أكبر من قدرتي على الفهم. في المساء، أخبرتُ علي بما جرى. سردتُ له تفاصيل انهيار جُمان، صراخها، دموعها، وحيرتي. انتظرتْ منه كلمة، حلًّا يعيد الطمأنينة إلى طفلتي أو يخفف وجع قلبي. لكنه صامتٌ، عاجزٌ، وأنا أترقب.

رجلٌ اعتدتُ أن أجده حاضرًا، يملك إجابات لكلّ سؤال وحلولًا لكل معضلة، بدا فجأة فارغًا من كلّ شيء. استأذنني مبكرًا، متعللًا بإرهاقه من فعاليات الوزارة. لم أستطع سوى أن أهزَّ رأسي بلا اعتراض، تركني أراقبه وهو يغادر بخفة.

في اليوم التالي، كنتُ بين طالباتي، حين دخلت عليّ أستاذة انتصار، المشرفة الاجتماعية. لمحتُ في عينيها شيئًا يشبه الضجّة، قالت:

ـ أبي أكلمج في وگت الفسحة.

ذهبتُ، جلستُ أمامها، قالت إن الأمر يخصّ جُمان، تعجلتُ بردي:

ـ ما في داعي تكملين. موضوع خطبتي انتهى. وعدت جُمان، ما بيصير أي شي.

ـ الموضوع مو مثل ما تظنين، وماله علاقة بموضوع زواجج.

تابعت:

ـ جُمان تعرضت لتحرش، وأكثر من مرة.

لم يبدُ لي أنني فهمتُ ما قالت بالضبط. جُمان؟ طفلتي أنا! حاولتُ الاستيعاب، أعيدُ ترتيب شظايا أفكاري. جُمان لا تكاد تفارقني طيلة الأيام والليالي؟ معي في المدرسة، في المنزل، في كلّ مكان. كل المسافات بينها وبيني كانت مليئة بي، فكيف حدث أن أخطأتُها؟ بعد وفاة أمي، لم أتركها بمفردها قط، حتى بين إخوتي وأبنائهم، حتى مع أبناء حليمة الصغار، أتجنب أن تبتعد عن ناظِرَيّ.

نظرتُ إليها، متمسكة ببقايا شجاعتي، سألتها بصوتٍ بالكاد خرج:

ـ شلون؟ ووين؟

ـ الريال اللي يوديها مركز الموهوبين

***

لا تقتلك الطعنة الغادرة فورًا، هي تتركك تنزف بأسئلتك: شلون؟ وليش؟. تفكر مرارًا كم كنت أعمى! كيف يمكن أن تأتي الطعنة من حيث وضعتُ الأمان؟ من كشفت له ظهري، وجعلته شريكًا لحياتي، ليكون جسرًا بين مدينتي والمحرق، بين ضعف طفولتها والقوة التي أردتها أن تكون عليها؛ فكان هو ذاته الوحش الذي علّمتها الهروب منه.

ظننت أنني أعيد بناء شيء يشبه العائلة، يغنيني عمّا خسرت؛ فكان حفرةً ابتلعت ابنتي. غابةٌ في صدري تشتعل، دموعي أقرب إلى الانفجار؛ لكنني لم أبكِ. يتفتت قلبي خوفًا عليها، الخوف أعمق من أيّ رد فعل، يلتفّ حولي مثل يدٍ باردة، تسحبني نحو قاع لا قعر له.

كان تمزقًا بطيئًا في داخلي؛ صدعًا أسمع تشققاته:

«مرعب، بشع»

كيف يمكن للعالم أن يكون بهذا القُبح؟

عدتُ معها من المدرسة، أخذتها بين ذراعيّ، ضممتها بقوة، أحاول حمايتها ـ بعد فوات ـ الأوان مما حدث. رجفتُ في أذنها، أهمسُ وجعي:

ـ حبيبتي جُمان، تعالي في حضني، أمج آنا، آنا أگربلج من أي أحد، أستاذة انتصار مو الأگرب، كلميني يا عمري، شفيج؟ يا روح أمج.. گوليلي كلشي.

باقتضاب تكلمتْ كمن يسحب الصديد من عمق جرحٍ لا يريده أن يُفتح. بعكس ما أوضحت لأستاذة انتصار، شرحت لها بالحركات.

«كان يعصر صدري،

كان يبوسني بالقوة،

كان يتعبث بجسمي»،

«.. بعدين..».

مكتبة
t.me/soramnqraa

صوتي خرج مكسورًا، مهتزًا:

ـ ليش ما گلتيلي من الأول؟ ليش؟

كنتِ تستطيعين إنقاذ نفسكِ بكلمة، بمكالمة، بنظرة، بأي شيء!

كيف سمحتِ لي أن أبقى مغفلة، أعيش معتقدة أنكِ بخير، بينما أنتِ تغرقين دون صوت؟ لو أنكِ بالكاد أخبرتني...

لو أنكِ فتحتِ فمكِ، لو قلتِ أي شيء، لكنتُ حطمتُ العالم لأجلكِ، لكنتُ وصلتُ إليكِ قبل أن تنطفئي هكذا.

داخلي يهزأ مني: كأنه لم يكن عليّ أن أكتشف وحدي، أجمعُ الإشارات المتفرقة، أبحثُ في الظلام عنكِ، أصل إليكِ قبل فوات الأوان. لكني الآن.. أقف هنا، متأخرةً، حاملةً وجعي كما تحملين جرحك.

نظرت إليّ بعينين تحملان غضبًا مختلطًا بدموع، بصوتٍ متهدجٍ:

ـ لأني أكرهه، أكرهج لأنج تجبريني أروح وياه.

نصال مسمومة..

أمٌّ خانت طفلتها، الحصن، الأمان، تحولتُ دون أن أدري إلى سببِ ألمها. لم أركض نحوها بجنون كما تفعل الأمهات في الأفلام القديمة؛ فقط تجمّدتُ.

ـ سامحيني، يا روحي

هذا كلّ ما استطعتُ قوله.

لم يكن الغضب كافيًا، ولا الانتقام شفاءً.

كنتُ أبحث عن معنى للخراب: هل كنتُ عمياء، أم تعمّدتُ العمى؟

كيف تكون الأم حصنًا، ثم تدرك أنها ثغرةٌ لهجمة الذئاب؟

أردتُ أن أمسك بيديها، أن أخبرها أنني هنا، أنني لن أتركها. خائفةً من أن تكره يدي هذه، من أن ترى في وجهي ملامحٍ من جرحها. خائفةً من أن أكون جزءًا من الجرح، لا البلسم.

سامحيني جُمان.

لم تسامحني أبدًا، لم تغفر لي جريمتي.

وكأنّ هناك دائمًا من هو أقرب مني لقلبها، لثقتها. وبعد أقل من عشر سنوات، ستعيد شكواها مرةً أخرى.

***

لا أدري أية شجاعة اجتاحتني لأكتب لعصام. كتبت له كلّ شيء، بلا تزيين أو تضليل. لا أعلم إنْ كنتُ أبحث عن إجابة، أم أنني كنتُ أفرغ همًّا يسكن صدري، كتبت له عن جُمان، عن طعنة علي بعد ثقتي فيه. علّه يمنحني تفسيرًا أو يُعيد إليّ جزءً من ثباتٍ أضعته.

سلبتني الحادثة يقظتي، أفقدتني صوابي لسنوات طويلة. أراقب نفسي من الخارج، شخصٌ آخر ينظر إليّ بعين باردة، بلا تعاطف ولا إدانة صريحة. امرأة تحاول أن تكون كما يريدها العالم، تبتسم حين يُفتَرَض بها أن تبتسم، تبكي حين يكون البكاء مقبولًا، تبرر ضعفها بقوةٍ لا تملكها؛ لكن داخلها، حيث لا تصل أعينُ الناس، صوتٌ آخر، أكثر صدقًا، أكثر وحشيّة. صوتٌ يهمس:

«لستِ بريئة... أنتِ لستِ ضحيّة، لستِ نتاج ما فُرض عليكِ، كل ما حدث هو اختيارك، فلا تدّعي العجز».

أهرب منّي، فأصطدم بي في كلّ انعكاس، في كلّ مرّة نظرت إلى المرآة ولم أتعرف على من يحدّق فيّ:

«متى يبدأ الإنسان في التحوّل إلى نسخةٍ لا يعرفها؟ متى يصبح ما يخشاه يومًا جزءً منه؟»

أقف عاجزةً عن استيعاب ما حدث، لا منطق يفسّر، ولا غضب يتشكّل

في كلمات. لم أقدّم شكوى كما نصحتني انتصار، ولم أواجهه، لأنني لا أُجيد المواجهة. لست شجاعة، لا أرفع رأسي حين يُهان قلبي. الهروب كان خياري المريح، درعًا من وهمٍ أعرف أنه لن يحميني. كلّ ما فعلته أنني حظرتُه، دفنته في بقعةٍ مظلمة وأقسمتُ ألا أعود.

قلبي توجه مباشرة نحو جُمان. سلامتها النفسية أولويّة وحيدة تشغلني. حجزتُ لها موعدًا مع طبيبة نفسيّة. الطفلة التي اهتزت ثقتها في الكبار. رفضت التعاون معها ورفضت الذهاب في المواعيد التالية، تعلن بطريقةٍ غير مباشرة أنّ الكبار خذلوها بما يكفي.

احترمتُ رفضها، تعلمتُ من التجربة القاسيّة أن أنحني لطفولتها، أثق في قراراتها، وإنْ لم أستطع فهم دوافعها.

هي، رغم صغر سنها، ترى ما أعجز أنا عن رؤيته، تفهم بعيني طفولتها ما لا تفهمه عيناي. أتابعها من بعيد، أراقبها كمن يخشى أن يُعيد الخطأ نفسه. تبتعد عني شيئًا فشيئًا، كما لو أن بيننا حائطًا يبنيه الزمن طوبةً فوق طوبة.

لم تعد جُمان طفلة مطيعة تعشق مصاحبة أمها. صارت تحاول الهرب مني، تتمرد.. ترفض، أنا الذكرى الأولى للوجع في حياتها.

كل يوم، أعود لتلك اللحظات، أطاردها كمن يحاول القبض على ماءٍ يتسرب من بين أصابعه. أعاتب نفسي، أبحث عن نقطة بداية، عن لحظة تهشّم الأمان بين يديها. كيف أرتق ذلك الشرخ العميق وأستعيدُ طفلتي؟

في صمتها تختبئ الإجابة، وفي تمردها تنكشف الحقيقة. لا كلماتٍ تكفي، لا اعتذاراتٍ تداوي. جدارٌ يرتفع بيننا ولا يتزحزح، مسافةٌ تفصلني عنها تتسع.

مفتاحٌ آخر بيد القدر وحده القادر على الترميم، أو النسيان، أو القصاص.

***

الطاغوت الأبيض

بقي وجعي سجينَ صدري.

لم أَبُحْ به لأحد من حولي خوفًا عليها، أو لربما خجلًا من نفسي، لم أملك القوة لأواجه نفسي أو العالم بخيانةٍ ارتكبتُها بغير قصد بحق طفلتي. حتى لحليمة أقربِ صديقة لي.

حليمة ابنة أخي، تلك القرينة التي حملت طفولتي بين كفّيها. كانت توأمي الذي تأخر عني ثلاثة أشهر. كبرنا على ذات الدرج، تقاسمنا الذرة، والطباشير، والأحلام. الحديقة الصغيرة كانت سماءنا، وزقاق المدرسة كان الكون بأكمله. ثم كبرنا... هي إلى الجامعة، وأنا إلى دار عبد الحي.

حتى بعد سفري وابتعادي، ظلّت تلاحقني بالاتصال، بالعتاب، بالتفاصيل: «يالگاطعة، أدري لو ما أتصل ما تسألين»، أضحك، أجيبها «بـ هلا بهالصوت»، وتبدأ قصصها: عن زوجها أبي علي وهواه البحري، عن خادماتها السبع الهاربات، عن مديرتها الظالمة، عن ستةٍ تناديهم بأولادها.

تثرثر، تطهو، تخترع وصفات وتسميها باسمها، تسألني عن السويد،

عن الكِبّة، عن وصفات الشيف عصام، تسأل عني كما لو أنني ما زلتُ في بيتنا الكبير، وكأنّ شيئًا لم يتغير... غير أن كلّ شيء قد تغير.

هي مرآتي القديمة، حين أتعب أراها، أختبئ فيها، كأنها تحرس ما تبقى منّي. لا تسألني أسئلةً صعبة، لا تطلب توضيحًا، تفتح قلبها وأفتح جروحي، وتبقى، حتى حين ألوذُ بصمتي، تملأ الفراغ بحكاياتها. تمنحني ما يشبه بيتًا في نهاية الغربة.

***

في أوج الأزمة.. اتصلت بي، كأنّها تقبض على كفّي:

ـ تسلّحي بحسبي اللّه ونعم الوكيل، ما تعرفين قوتها وتأثيرها! صدگيني هالعبارة سهم يصيب الظالم من حيث لا يحتسب. كنت آنا كل ليلة أرفع جفوفي للسما، أتحسّب على من ظلمني في الشغل، ما دار الحول عليهم إلا كلّهم تطشروا بقدرة قادر.. واللّه يالولوة كلهم تزعزعوا من كراسيهم بغمضة عين.

كانت قد شكت لي ظلمًا وقع عليها بعد التغيير الهيكلي في مؤسستهم. إذ تمّ تعيين مجموعة مسؤولين متناغمين، كُتيبة جاءت كريحٍ سوداء، لا تُبقي ولا تذر. قلبوا المؤسسة رأسًا على عقب. صار التحقيق جزءًا من الدوام الرسمي. الموظفون واقفون على مرمى الاتهام، يتنفسون بحذر. أقبلوا عليهم بقاعدة واضحة: الجميع مذنب حتى تثبت إدانته، العقوبات تتوالى، تحقيقات، استدعاءات، خصومات من الرواتب، إيقاف درجات، والمسار قد ينتهي بالفصل. البراءة، ليست في قاموسهم.

تقول حليمة، عامان من الذعر، من أعينٍ مترصدة، من أبوابٍ مغلقةٍ لا

تفتح إلّا لاستجواب جديد. عامان والمؤسسة تختنق تحت وطأة الجهل، والتعسف، والظلم، والخوف. لكن للعدل مواعيده أيضًا، وإن أبطأ.

صدرت قرارات تباعًا من أعلى سلطة، لتقتلع جذور الظلم من المؤسسة. تلاشى أولئك الذين عاثوا فيها فسادًا. أسماءٌ ترتعد منها القلوب، صارت طي النسيان، من أُحيل للتقاعد، ومن سُحب من منصبه، لا ذكرى تُخلّدهم، لا أثر يبقى بعدهم.

كلّ ذلك وأكثر فقط لأنها حوقلت وحسبنت، حفظتُ كلماتها جيدًا، حملتها معي في صمتي، في ليالي عجزي، في اللحظات التي ضاقت فيها الدنيا حتى ظننتُ أنّ لا عدالة في الأرض، ولا استجابة في السماء.. صرتُ أردد في كلّ لحظةٍ:

«حسبي اللّٰه ونعم الوكيل».

***

على أبواب قاعات السوسيال، في ممراته الباردة، في وجوه مرتاديه المشبعة بالأسى، أتعثر في قصص الشتات والخذلان.

فصولٌ متتالية من الرواية ذاتها، رواية لجوء يكتبها مداد الحرب، ثيمتها الفقد والألم، رواية عائلات مزّقتها قرارات باردة لمؤسسات ترى البشر أرقامًا في ملفات لا تلتفت إلى الأمهات اللاتي يقضين لياليهن ممزقات بين ورقة تختم مصيرهن، وقلوب تخفقُ بأسماء أولادهن في كلّ نبضة.

يقولون: «الطفل لا يُنتزع من حضن أمّه إلا لمصلحته».

«ديمة»، هربت مع ابنتها ذات الست سنوات بعد أن قُتل زوجها في قصفٍ على حمص. رأيتها مرة عند باب المحكمة، تُقلّب صورًا في هاتف مكسور، تضعه أمامي باسمة لأطالع رقة ملامح ابنتها. قررت الحكومة أن الطفلة بحاجة إلى بيئة أكثر استقرارًا كأنها لم تكن بين ذراعيها حين كانت الأمواج تبتلع القوارب حولهم، وكأن الخوف لم ينَم معهما في العراء على الحدود. سُحبت الطفلة منها حتى ضاعت بين بيوت التبنّي. ديمة كانت تختنق بحكايتها فتنزفها كلمات مبتورة. لا تملك إلّا الخنوع، وهي ترى ابنتها تتحوّل إلى شخصٍ لا تعرفه، إلى ملامح غريبة، بلا هوية.. مثليّة ضائعة بين ما يجب أن تكونه، وما آلت إليه.

كل مرةٍ وقفت فيها أمام القاضي، شعرتُ أن المحكمة غرفة إنعاش، أمٌّ تحاول أن تُعيد نبضًا لطفلٍ خُدر بثقافة غريبة.

الهوية ليست اسماً على وثيقة، ولا علماً فوق مبنى قنصلية.

الهوية جذر عميق. حين يُقتلَع، لا يتبقى إلا ساقٌ ذابلٌ.

الأطفال الذين تَسحَبُهم السوسيال لا يفقدون أسرهم فقط، هم يفقدون ذواتهم، يتحولون إلى كائناتٍ هجينة، هائمةٍ بين ثقافتين دون أن تنتمي حقًا لأيٍّ منهما، أطفالٌ تائهون بين ما فُرض عليهم، وبين ما كانوا ليكونوه لو لم يُنتزعوا من جذورهم.

هكذا يُنتزع الأطفال في دول الشمال: لا صراخ، لا دم، لا جنود. لا خطف مسلح. يُنتزعون بورقةٍ تُختم باسم القانون، ويُعاد تدويرهم ليصبحوا نسخا لا تشبههم.

«هند العراقية»، وجدت نفسها أمًّا وحيدةً بعد أن قرر زوجها الهروب

من مسؤوليته، صمدت لتثبت أنّها قادرة على رعاية ابنها؛ لكن القانون لم ينظر إلى ليالٍ أمضتها بلا نوم، إلى معارك خاضتها وهي تعمل بوظيفتين كي توفر حياة كريمة لصغيرها، القانون استند على ورقةٍ ترتأي إنها غير مستقرة ماليًّا، سحبوا منها طفلها بحجة مصلحته، المصلحة أن ينمو بعيدًا عن ذراعيها، بعيدًا عن حضنٍ لم يكن يضيق به يومًا.

أمّا «دياب» فيقول بصوت متحشرج: أخذوا أولادي الخمسة.

مأساة، تتكرر كلّ يوم، مع كلّ أب وأم شرقيين تطأ أقدامهم أرضًا لا تتسع لعاداتهم، لطريقتهم في الحبّ، والتربية والاحتضان.

دياب لم يكن وحشًا؛ لكنّه لم يكن كما يريدون. صوته عاصفٌ حين يغضب، ويداه خشنتان حين يوجّه ابنه للجلوس في هدوء؛ لكنّه لم يكن قاتلًا، أو مجرمًا، لم يكن شيطانًا. رُفع تقرير إلى السوسيال بأن بيته غير آمن. وأنّ أطفاله يذهبون إلى المدرسة بملابس غير مرتبة، وأن دياب يوبّخهم حين يخطئون. لم يحتَج الأمر إلى أكثر من ذلك.

في صباح بارد، داهموا بيته كما لو أنّه مجرم خطير. دخلوا كأشباح، انتزعوا الأطفال واحدًا تلو الآخر، وسط صراخ الزوجة، وتوسلات الجدة، وانهيار دياب. بعد يومين، جاءه اتصال رسمي: تم توزيع الأطفال على عائلات بديلة، ولن يُسمح لك بزيارتهم حتى إشعار آخر.

هكذا، في لحظة، لم يعد أبًا. يجلس أمامي الآن في قاعة الانتظار، رجلٌ فقد القدرة على تفسير أي شيء. نظر إليّ وقال:

ـ ابني الأكبر في عائلة مسيحية، الأصغر عند زوجين مثليين، والبقيّة لا أعلم أين هم.

وأنا «لولوة البحرينية»، وأطفالي؟ مجرد رقمٍ في طابورٍ طويل يُدهَس ببيروقراطيةٍ باردة. سُحقنا كما يسحق النمل تحت عجلات نظامٍ يدهس ولا يعتذر.

***

أقرأ وأصغي.. أرى وأختنق، كلّ الحكايات تلبس القميص ذاته: قرارٌ إداري في الأعلى، وقلوبٌ مكسورة في الأسفل. لاجئون لا يخسرون أوطانهم فقط، هم يُجَرَّدون من أطفالهم على طاولات نظيفة، بلا دماء، بأختام فقط.

كلّ قصة أسمعها، فيها صدى لحكايتي، كأنّي أقف على الدرج ذاته، أنتظر أن يُنادى باسمي، فأُضاف رسميًا إلى لائحة الأمهات المنسيّات.

الغربة؟ ليست لهجة غريبة، ولا طقسًا باردًا. الغربة حين تهمسين باسم طفلك، ولا يعود لك. حين تصبح الأمومة قرارًا، والأبوة إثباتًا، والعائلة ملفًا في درج.

في قاعة الانتظار، الوقت ثقيل. وجوهٌ ذائبة في قلق، أمهاتٌ يضمدن قلوبهن بأمل مكسور، وآباء يتظاهرون بالتماسك، بينما الخوف يزحف في عيونهم كصقيعٍ لا يذوب. بجانبي، سيدة عراقية، انفجرتْ بمرارة:

ـ ولج وين العدل؟ الأطفال مات أهلهم بالبحر، أو تاهوا، والدولة تدفع 15 ألف كرون للنفر بحجة الرعاية! العاطلين صاروا يشوفون السالفة مشروع العمر. فلل مليانة أطفال، تجارة بس!

قاطعتها أخرى سورية، همست:

ـ السوسيال عارف، ومغطّي عليهم. كل طفل إله سعر، وكل تقرير إله رشوة... الأطفال بيتبدلوا متل الطرود. بضاعة!

تمتمت:

ـ يعني مو بس بيسحبوهم... بيبيعوهم كمان؟

ضحكت الشابة السورية بتهكم:

ـ نحنا كنا نفكّر يهتمّوا بحقوق الطفل. طلع كلّ همهم بحق التحويل البنكي.

نظرتُ حولي، رأيتُ أمهاتٍ يحتضنّ أوراقهن كصكوك خلاص، وآباءً يحاولون كتمان ارتجاف أصابعهم، وأطفالًا يراقبون المحيط بعينين واسعتين، لا يفهمون لماذا أصبحوا أوراقًا في لعبة قذرة.

ظننتُ أنّ الحرب في الشرق، وأنني نجوتُ منها؛ لكني أدركت الآن أنّها لم تنتهِ، تَبَدَّلَت أسلحتها ليس إلا. في غزة وسوريا ولبنان تتساقط القنابل كالمطر، نيران ورصاص يقتنصُ الأطفال، يُدفنون تحت الركام، وفي العراق يُبعن الإيزيديات في سوق النخاسة، تُجتثّ براءتهن كما تُجتث الأرض من جذورها.

وفي الغرب، يلبس الموت قناع قانون، يتسلل عبر الأوراق الرسميّة، ينتزع الأطفال من الجذور، تُسلخ منهم الأسماء، يُعاد تشكيل الهوية، كأن الانتماء خطيئة يجب التخلص منها.

الموت هناك صارخٌ، وهنا خافتٌ؛ لكنّه لا يقل فتكًا.. وقسوة.

***

ظل الأخ الأكبر

عصام هناك... في جبهةٍ لا أعرفها.

أكثر من ثلاث سنوات مرّت على سقوط الموصل، وهو يسقط في أعماقي كلّ ليلة. غيابٌ طويل، وصمتٌ أطول. لم يكن من عادته أن يظهر...

لكن اسمه ظهر بغتةً ثم اختفى، وبقى الاشعار: تمت قراءة الرسالة.

عبارة صغيرة أسفل المحادثة زلزلت صدري.

كان «أونلاين» قبل دقائق.

عصام فتح المسنجر؟

هل فتح بريده وهو ما زال في الموصل؟ أم عاد.

صرتُ أكتب وأرسل، لكن المسنجر مغلقًا، كأن الرسائل تمشي حافية، ولا باب يُفتح. أهو هناك؟ أم أنّ الإشارة مجرد وهم؟

عصام... أجبني، ولو بنقطة.

رغم تأخر الليل، رفعتُ هاتفي واتصلتُ بخالي.

ـ خالي عصام رجع؟

بدا صوته منطفئًا:

ـ حمدلله يبنتي اييه رجع.

ـ ألف حمد الله على السلامة خالو! بقدر أحكي معو؟

ـ لا، من يوم ما رجع وهو منضب بغرفتو.

ـ إيمت رجع؟

ـ من شي ست شهور.

ستةُ أشهر!

أنام وأصحو كالمعتاد، بين دفاتر الطالبات، طاولات المدرسة، أرسل رسائل لا تُقرأ، وأتصل وأسأل ولا من مجيب.

بينما هو هنا، على بُعد خبر، وأنا آخر من يعلم.

ـ ليش ما خبرتني خالو؟

ـ اللي رجع مو عصام اللي بتعرفينه... اللي رجع واحد تاني.

ثم انفجر صوته بالبكاء...

ـ ما بدو يروح المشفى، كأنه حاسس حالو بدو يموت.

ـ عندو تلفون؟

ـ لا... حتى تلفون ما بدو يكون معه.

ـ طيب شلون دخل على المسنجر؟

ـ بتوقع من موبايل ندى.

لا يهمّ كلّ ذلك الآن... المهم أن عصام عاد سالمًا.

كاد قلبي يسبقني إلى دمشق. أردتُ أن أطير، الليلة، الآن.

أن أقرع بابه كما كنت أفعل، أن أراه... ولو بصمته.

لكن جُمان كانت تغفو في حجري، الفصل بالكاد بدأ، الاختبارات لا تتوقف، والإدارة لا تمنح إجازةً حسب تقويم القلوب المرتبكة. لم يكن السفر مستحيلاً، لكنه مؤجَّل، كما أُجّل لقاؤنا من قبل. أجّلته حتى نهاية العام، حتى لا أذهب إليه وأنا ممزّقة. أريده أن يراني كاملة، ولو من شظاياي.

لكنّي خفت.

خفت أن أصل، ولا يفرح.

أن أقول له: آنا جيتك.

فيشيح بوجهه كأنّي تأخرتُ على عزائه.

هل ما زال في عينيه مكان لي؟ أما زلتُ في ذاكرته، أم صرت ماضيا منسيا؟

البريد الإلكتروني صندوقٌ مهجور، تُرسَل فيه رسائل لا تجد من يفتحها، لا تجد حتى من يرفضها. آلاف الرسائل، آلاف التفاصيل، حاولتُ أن أعبر بها المسافة إليه، لكنه كان هناك، حيث لا تصل الكلمات.

والغياب يبدو أثقل من أيّ وقتٍ مضى؟

أقرأ رسائلي القديمة، كمن ينقّب في خرائب قلبه. رسائلُ ظننتُ أنها ستفتح بيننا حوارًا.، عصام أغلق الأبواب كلّها، تركها وحدها ورحل. غائب بروحه دون جسده، شيء ما انسحب منّه ولم يعد.

ترى، هل قرأ بعضًا منها؟ أي سطرٍ قرأه وأشاح بوجهه؟ أم أنه لم يعد يملك قلبًا يكمل القراءة؟ هل خنقه الألم في رسائلي لتصبح سدًا منيعًا عن مواجهتي؟ أم أنّه ببساطة لم يعد يملك ما يُقول؟

سأنتظره، لن أستسلم.

سأظل ألحّ وأترقب رده: على بريد، على اتصال، على نداء الروح.

لن أُسافر الآن، لأني أخاف أن أعود إلى من أحبّ، ويكون الباب، هذه المرّة، موصدًا من الداخل.

***

رسالة جديدة من عصام:

«لستُ سياسيًا، لم أحبّ السياسة يومًا. لا أستطيع أن أكونَ برجماتيًا، أتكلم اليومَ بما أمقته الأمس، أدافعُ عن قضية أمضيت دهري ألعنها. أنا رجلٌ بسيطٌ يا لولو، لا أجيد سوى الحبِّ والحلم.

أخبرتكِ أن أورويل لم يكتب خيالًا؛ إنّه تنبّأ بنا. نحن الذين نخشى الحلم. نعم، أخاف، لا أجدُّ في خوفي عارًا. كيف لا أخاف من نظامٍ امتهن القتل، اغتال جدي وعمي لأنهما حلما بشيءٍ بسيط، بشيءٍ مستحيل، الحرية.

نظامٌ عاش في سريرنا، جعلنا نشكُّ في أحلامنا، يراقبُ نبض الفكرة

وهي تختمر في رؤوسنا. نخشى الهمس، نخشى أن يصبح الجار مرآةً لنوايانا، أو أن يتحولَ الصاحب إلى سيفٍ في يد الجلاد. تقريرٌ صغيرٌ كفيلٌ بأن تُمحى بقية عمرك، تجد نفسك بين أقبيةٍ لا ترى النورَ في الأفرع الأمنية، فرع 215 وأشباهه، هناك تموتُ الأسماء، تبقى أنت مجرد رقمٍ في قائمة محضر ضبطية. في منظومة رعبٍ ممنهج تبدأ من المُخبر، وتنتهي بالمُطهِّر.

أنتِ، بسذاجتكِ، لم تصدقيني. أو أننا أصلًا لا نجرؤ على أن نبوح بصدق، ترددين سوريا آمنة، جميلة. لا أخالفك، جنة اللّٰه في أرضهِ سوريا، تكررين: الرئيس يحبكم. أنتِ حتمًا واهمة، على ذكر السيد الرئيس، هل أخبرتكِ أنني يوميًا عند ذهابي إلى الجامعة أخشى أن أطلبَ من سائقِ سيارةِ الأجرة أن يوصلني عند جسر الرئيس دون أن أقول جسر السيد الرئيس؟ لأتجنبَ شبهة الإهانة، تلك الشبهةُ تكفي لمسح إنسان من الوجود، أو ليجد حياته ممزقةً خلف أبواب سجون مثل فرع الخطيب.

أنتِ تعرفينني وتعرفين خالكِ جيدًا، لم نكن من أولئك الرافعين أصواتهم؛ لكنني جزءٌ من معارضة صامتة، تقاوم في الخفاء، تدفع أثمانًا باهظة لتبقى على هامش الظلم. دفعتُ آلاف الدولارات، ليس طمعًا في حرية كاملة؛ وإنما لأهرب من أن أُجَرَّ إلى تجنيدٍ في كتيبةِ النظام، هناك يتحول الإنسان إلى أداة تَقتُل، أو تُقتَل. لم أستخرج شهادةً جامعيةً رغم أنني أتممت دراستي، لم أحصل على رخصة سياقة، لم أخطُ نحو أي عملٍ في مؤسساتِ الدولةِ كأسير حرب. كيف أعمل في منظومةٍ نخرها الفساد، وأُجبر أن أكون جزءًا من ماكينة الخراب فيها؟

النظام يسلبنا خياراتنا بأساليب لا تُعَدّ، الساحات الواسعة، حوّلها إلى باحاتٍ للسجون. جميعنا بلا استثناء عالقون بين القضبان، وإن لم نكن داخل الزنازين. كلّ خطوة، كلّ كلمة، كلّ لحظة يمكن أن تكون بابًا يُفتح نحو سجن حقيقي، سجونٌ ضيقةٌ تُدفن فيها الأرواح قبل الأجساد.

في سوريا، النظرة تهمة، والاسم قيد، والشارع فخ.

كنا أطفالًا نهتف لصورٍ لا نعرف أصحابها، تثقل وجوههم دفاترنا ونرتجف رعبًا منها. حين اشتعلت شرارة الثورة، لم أكن من أوائل من خرجوا. خبأتُ سكين الشاورما تحت معطفي، خرجتُ من المحل، مشيتُ إلى نهاية الزقاق في حيّنا. هناك، تلك الصورة المعلقة، العالية، ظلّت عمرًا تنظر إلينا بلا رحمة، قررتُ أن أثأر منها. وقفتُ تحتها، مددتُ سلاحي، حاولتُ أن أصل تلك الرّقبة المرفوعة بطشًا، خذلتني قامتي أمامها. حد السكين خانني. كلُّ ما أصبت به جرحٌ في يدي. حينها، لحظة الجرح والدم، وجدتُ نفسي أركضُ إلى ساحة المسجدِ الأموي، أذوبُ بين أصوات المتظاهرين. لأولِ مرّةٍ ينبع الهتاف من القلب، صرخةٌ حقيقيةٌ تمزّق جدار الخوف اللّه، سوريّا، حريّة وبس.

ثلاثُ سنواتٍ ونحن نعيش في فم الجحيم، الموتُ هواءٌ يسكن الأزقة. نسمعُ قصصًا مروّعة، قصصٌ تتجسد أمام عينيك لأبناء جلدتك. أجسادٌ ممزقة، جثثٌ متعفنة، تحت الجلودِ عظامٌ نافرة، عيونٌ اقتُلعت من محاجرها، تموت ولا تموت.

لم تكن الحياة حياة، شيء مشوّه بين الموت وبين ما قبله، لعبةُ البقاء

على قيد الخوف. الوطن ليس كما عرفناه، صارت المدنُ مقابرَ مفتوحةً، الهواءُ برائحة دخان وبارود، أصواتٌ نسمعها ليست أصوات العصافير أو ضحكات الأطفال، كانت أزيز رصاص، انفجاراتٌ تقضم المساحات، صراخٌ متقطعٌ سرعان ما يخمد ليُستبدل به السكونُ.

شبيحةُ النظام لم يتركوا لنا رفاهية الانتماء، نخاف أن نُبتَلَع في أي لحظة. أنتَ لا تحتاج إلى سببٍ لتُقتَل هنا، لا تحتاج إلى ذنبٍ لترمى في السجون أو يُمحى اسمك من السجلات كأنكَ لم تكن. ربما يكفي أن تمرَّ من حاجزٍ ببطاقةِ هُويةٍ تحملُ اسمًا غير مرغوب فيه، أو أنْ يشي بك أحدهم لأنك لم تصفّق بحماسةٍ كافية، أو لأنّ عينيك تحملان نظرةً تشبه الشكّ. في سوريا، النظرات تُحسَب عليك.

الأيامُ تساقطت من عمرنا كما تتساقط الأحجار في مدينةٍ تتعرض للقصف، واحدةً تلو الأخرى، دون أن نملك قدرة على عدِّها أو تأملها. كلّ شيء هشٌّ، أحاديثنا تحولت إلى إشارات، نظراتٌ متوجسةٌ، كلماتٌ مقتضبةٌ تُقال على عجلٍ قبل أن يبتلعها الخوف. لا أحد يثق بأحد، لا أحدَ ينامُ مطمئنًا.

سوريا تموت، موتها لم يكن سريعًا، لم يكن طلقةً واحدة أو سقوطًا حرًّا، كان موتًا يتسلل كالحصار، يجفّف الأرواح ببطء، ويترك الناجين بلا نجاة.

مئات الآلاف سقطوا شهداء، آخرون غُيبوا في السجون، لا أسماء، لا ملامح، أرقام تُضاف إلى لائحة المفقودين.

كيف لا أهاجر؟ كيف أبقى؟ الوطنُ ساحة حرب، لا أمانَ فيه، لا

مستقبلَ. الهجرةُ لم تكن خيارًا، الهجرةُ نجاة، محاولةٌ للفرار من وطنٍ صار مقبرةً مفتوحة. في الهجرة على الأقل، هناكَ وعدٌ ضعيف بالحياة.

مشتت يا لولو، أبحث عن وطنٍ يلمّ شتاتي، أشعرُ بتمزق هويتي منذ بدأت الحرب. حين أطبقت غيومٌ سوداء على سماءِ الموصل، وجدتُ نفسي في دوامةٍ لم أختَرها، مشيت نحوها بقدميّ. نعم أعترف أنا من مشيت. سقطتْ المدينة بيدِ مقاتلي الدولةِ الإسلامية، أسمعُ من أصدقائي همسًا عن عودة الخلافة، عن حلمٍ يُنسج من رفات الماضي، عن أمجادٍ يُراد لها أن تُبعث من رماد. يتحدثون بحماسةٍ تشبه حماسة الأطفال حين يركضون وراء طائرةٍ ورقيةٍ في يومٍ عاصف.

دمشق تمتص آخر أنفاسي كغرفةٍ مغلقةٍ تزداد ضيقًا كلّ يوم، قررتُ الرحيل. تبعتهم، ألقيتُ بنفسي في لُجَّةِ حلمٍ مسموم.

***

النهر المذبوح

غادرتُ دمشق في ليلةٍ خرساء، مشيتُ مع قافلةٍ من الهاربين، انطلقت الحافلة متجهة نحو دير الزور، طرقٌ ترابية محاطةٌ بأشجار زيتونٍ، سماءٌ اختلطَ لونها بغبار المدافع. على جانبي الطريق، أطلالُ بيوتٍ تُطلُّ علينا بشبابيكٍ محطمة. داخل الحافلة، أعينٌ متعبةٌ رأت أكثر مما ينبغي، أصواتُ عجلاتٍ تسحق الأرض، تمحو آثارنا قبل أن يكتشف أحدٌ وجهتَنا.

عند الفجر، وصلنا إلى معبرٍ غير رسمي، تحرسه البنادق. رجالٌ ملثمون، بعضهم يرتدي الزي الأفغاني، البعض الآخر يختبئ خلف راياتٍ سوداء، غمامٌ ممتدٌ من زمنٍ غابر. طلبوا منا بطاقات الهوية، نظروا في وجوهنا بتركيز، يبحثون عن نوايانا في أعيننا. أحدهم، مغربي اللهجة، سألني:

هل أتيت نصرةً للدولة؟

أومأتُ برأسي. المضحك أنني لم أكن أعلم إن كنتُ نصيرًا أم أسيرًا لطريقٍ لا عودة منه. بعد العبور، نُقلنا إلى شاحنةٍ صغيرة، جلسنا في الخلف محشورين كقطعٍ متلاصقة. كلما تقدمنا إلى الموصل، تراجع الزمن عقودًا، طُمِست ملامح الحداثة، صارت المدينةُ أمامي كتاريخٍ يُبعث من جديد.

وصلنا عند المغيب. أعلامٌ سوداء ترفرف فوق مبانٍ حكومية، لافتاتٌ تزين شوارع استبدلت بآياتٍ وأحاديث، بعضها أُلصق بعشوائية على جدرانٍ محفورةٍ برصاص. الناسُ يمشون بخطواتٍ حذرة، يتهامسون، يحاولون التأقلم مع واقعٍ لم يألفوه بعد.

قادونا إلى ساحةٍ صغيرة، حيثُ وقف قائد يُلقب بـ أبو قتادة الشامي. رجلٌ طويلٌ بلحيةٍ تصل إلى صدره، عيناه تحملان قسوة الصحراء، صوته يجلدُ الهواء كالسوط. رحَّبَ بنا بما يشبه خطبة نسمعها في تسجيلاتٍ سريّة؛ عن الجهاد، والدولة، والخلافة التي عادت بعد قرون. وأدركت حينها أن العالم فسطاطان: مؤمنون وكفار، كلّ من ليس معنا فهو عدو، القاعدة تقول: من لم يكفِّر الكافر فهو كافرٌ وَجَب قتله.

***

هنا الموصل،

رأيتُ ما لا تراه العين إلّا حين تُفتح أبواب الجحيم. المدينة، عروسُ الشمال، تحولت إلى ميدانٍ يعجّ بغرباء: نحن السوريون الحالمون، شيشانيون بلكنةٍ قاسية، سعوديون بنظراتٍ حادة، باكستانيون يحملون على أكتافهم عبء الغربة، مغاربة وتونسيون جاءوا تاركين قضاياهم خلفهم، رأيتُ الفلسطيني، ترك قتال المحتل في أرضه، يقف هنا ليقاتل أخاه كما لو أنّ العراق هو ميدان تحقيق الأحلام الضائعة.

عملتُ سائقًا للأمير أبي قتادة الشامي. أنقلُ الأوامر، أتنقلُ بين الخراب، في كلّ رحلةٍ، أسمعُ صدى صرخاتِ أرواحٍ دهستها الحرب.

أنا عصام، سائقٌ للأمير، والسائق دومًا يرى أكثر مما يجب أن يراه.

أميري، رجلٌ لا يعرف الخوف، أو ربما لم يعد يشعر به. يجلس بجانبي، ساكنٌ كصورةٍ قديمة، حين يتحدث، أسمعُ صوتَ رجلٍ اعتاد أن يمشي على الحواف بين الموت وبين النار.

أجلسُ خلف المقود، الأرضُ تبصق لعناتها في وجوهنا. لم أكن محاربًا؛ لكنني أقود الحرب بين يدي، أنقلُ رجالًا بين موت وموت، وأُقِلُّ الأوامرَ في صندوق السيارةِ الخلفي، حيث الرصاص لا يفرق بين جندي وسائق.

آمرلي، حصارُ جياع، وحربٌ تلوك ظلّها. نقطعُ طرقًا تُركت لتتعفن فوقها الجثث، وعلى رمادِ قرى كانت يومًا قصائد. في الخطوط الأولى، رجالٌ بأعينٍ خاوية، وأيدٍ مشدودةٌ على الزناد. الليلُ قنّاصٌ لا ينام، والموت، دخانٌ يتسرّب.

رأيتُ الجوع ينهشُ الأعين، ورجالًا يمضغون القمح النيئ، يشربون الماء كأنه آخر نعمة نزلت من السماء. خرجتُ من آمرلي، كما دخلتها، مجرد سائق، أحمل على كتفيّ وزر مشاهدٍ لن تغادرني أبدًا.

كنتُ هناك، ولم أكن هناك، شاهدٌ هشّ، عينان تريان ما لا يمكن نسيانه. المشهدُ أضيق من أن تحتويه مساحة، أوسع من أن يستوعبه زمن.

مجزرة سبايكر، سالت فيها دماء الآلاف. رأيتهم يُسحَبون واحدًا تلو الآخر، كنتُ هناك. رأيتُ كلَّ شيء. لم أكن قاتلًا يا لولو؛ لكنني شاهد، والشاهدُ أحيانًا يُقتَل ألف مرّة، لا برصاصةٍ في الرأس؛ وإنما بذكرى ترفُضُ أن تموت.

رأيتُهم يُساقون كالقطعان، حفاةً رؤوسهم محنية، بعضهم ما زال يرتدي

زيّه العسكري، لم يكن درعًا.. لا حماية، لم يكن يعني شيئًا، مجرد بقايا انتماء لا يساوي أكثر من قماشٍ ملطخٍ بغبارٍ وعرق.

أصواتُ تكبيرات، لم تكن تكبيرات صلاة، تكبيرات تقول إنّ هؤلاء لا يستحقون حياة. رأيتُ أحدهم ينظر إلى السماء، يرتجفُ، كأنه يتذكر آخر لحظةٍ فيها كان حرًا، قبل أن يُطرح على الأرض، قبل أن توضع فوهة البندقية على مؤخرة رأسه.

ثم انهمر الرصاص، طاف في الهواء، صوتٌ لا نهائيٌّ للموت. سقط الأول، الثاني، الثالث. لم يسقطوا دُفعةً واحدة، طابورٌ طويلٌ، واحدًا تلو الآخر، الدَّمُ يتدفق، الأجسادُ ترتجف للحظةٍ بعد الطلقات، ثمّ تهدأ. تتحولُ إلى كومةٍ أخرى فوق الأكوام المتزايدة. يدفعون بهم إلى حفرةٍ كبيرة تتسع للموت فحسب.

لم أعد أسمع شيئًا سوى دوي طلقات، دوي حياة تُنتَزَع بلا رحمة، بلا مبرر، بلا معنى. لم يكن هناك قتال، لم يكن هناك سلاحٌ في أيديهم، هناك وجوهٌ مذعورة، وأعينٌ تسأل: لماذا؟

لم أستطع البكاء، غمامٌ آخر في هذا المشهد الأسود. حاولتُ أن أحفظ ملامحهم، أن أتذكر كلّ شيءٍ عنهم، سقطوا سريعًا، أسرع مما تستطيع ذاكرتي أن تسجله. لم يبقَ سوى اللونِ الأحمر، ورائحةٍ لا تفارق أنفي، حين طُمرت الحفرة بالأجساد، عرفتُ أنني لم أعد الشخص نفسه الذي كنت.

لقد رأيتُ جحيمًا، لا في كتبٍ، ولا في أساطير. بأمِّ عيني رأيته على ضفاف دجلة، في وجوهِ جنودٍ لم يُمنحوا فرصة المقاومة. رأيته في أرض

ابتلعتهم، في نهرٍ حمل دماءهم بعيدًا، كما لو أنّه يحاول أن ينساهم، لن أنساهم.

أنا عصام لن أنساهم.

كنت هناك. رأيتُ كلّ شيء ولن أغفرُ لهم.. لن أغفر لي أبدًا.

***

كلّ ما حدث تركني معلقًا بين يقين وضياع، كمن يدور في متاهةٍ بلا مخرج، خطواته تلتفُّ حول نفسها دون هدى. أفتّش في العتمة عن وجه اللّه.. وأسأل أين طريق اللّه في كلّ هذا العبث؟

في الموصل، كنتُ شاهدًا على موتِ الحقيقة. الفكرةُ تُذبَح، الإنسانية تُسحَق تحت راية الدين.

في دمشق، أهربُ من قسوة نظام. هنا، لم أجد سوى منافِيَ أخرى، وقوالبَ جديدةٍ للجحيم، ووجوهٍ مختلفةٍ للظلم. وكأن القدر يهمس في أذني: كلّ الطرق التي هربتَ منها ستجدها بانتظارك في الجهة الأخرى.

أسمعُ عن معارك عن أرضٍ تبتلعُ أقدام المقاتلين فلا يعودون، عن رصاصٍ يكتبُ أسماء شهداء على الجدران. يتحدثون عن الجيش العراقي، عن مقاتلين لا يتراجعون، عن رجالٍ حملوا أرواحهم كما تُحمل الرايات، تقدموا نحو النيران دون أن يلتفتوا للخلف. لم أرَ بأسًا كهذا، كلّ خطوةٍ يخطونها فوق الأرض المحترقة تُعيد رسم الحدود بين الخوف وبين الصمود، بين الفناء وبين الخلود.

قررّتُ أن أنسلّ من بين أصابع الوهم، أفلتُ من قبضةِ الخوف، وأمضي حيث لا تعرفني الخرائط، أختفي. أموت في مكانٍ لا يعرفني فيه أحد.

الهروب شجاعة، وليس بالخيار السهل، فالمدينة محاصرة، والجنود في كلّ صوب، والطريقُ الوحيد للخروج عبر المُهَرِّبين.

انطلقتُ مع أمجد أبو عمر برفقةِ مجموعةٍ من الهاربين جنوبًا نحو معبر القائم، لم يكن لدينا خيارٌ آخر. معبر ربيعة تحت قبضتهم، ملغمًا برياتهم السوداء وأحكامهم التي لا ترحم. القائم الأمل الوحيد، وإن كان محفوفًا بالمخاطر، لكنه لا يودي للمقصلة.

انطلقنا عبر ممراتٍ سرية، شاحناتٌ متهالكة تهتز فوق طرقٍ وعرة، وأنفاقٍ محفورة. نتحرك ليلًا، نخشى أنفاسنا، فالموت هنا لا يحتاج إلى سبب، يكفي أن تكون في الرقعةِ الخطأ.

كنّا في غياهبِ الصحراء حين دوّى الانفجار. لم أرَ شيئًا، لم أسمعْ سوى طنينٍ في أذني، وجعٌ مفاجئٌ في جسدي، وجدتُ نفسي ملقى على الأرض، والترابٌ يملأ فمي، دماءٌ تسيل من قدمي ووركي. التفتُ إلى أمجد، جسده ممدد على بعد خطوات، جرحٌ غائرٌ في فخذه، ينزف، عيناه نصف مفتوحتين، بين الوعي والغيبوبة. الألمُ أقوى من أن أفهم الحدث. صرخات الاحتضار تضجُّ وسط أصوات الجرحى والمتفحمين وأنا أحتضر معهم.

من فجّرنا؟ التحالف؟ الدولة الإسلامية؟ المهرّبون؟ لا أحد يعرف.

الجميع يُقتَل بلا تفسير.

***

من الموصل.. بلا يقين

حين استيقظت، كنتُ في بيتٍ غريب التفاصيل، أغطية خشنة تغطي جسدي، رائحة رماد وحليب دافئ تملأ المكان. عشيرة البو نمر، قريبة من الفلوجة، هم من انتشلونا من الموت. إصابتي لم تكن سطحيّة، كسرٌ في الحوض، جسدي نصف مشلول، وأمجد جرحٌ غائرٌ ينزف، لا يتوقف.

بقينا أشهرًا طويلة، بين الحياة والموت، في غيبوبة من الألم. اعتنوا بنا كما يُعتنى بشيءٍ كاد أن ينتهي تمامًا. رجالُ القبيلة جلبوا لنا الأعشاب والزيوت، النساء غسلن جراحنا بماءٍ مغليٍّ بحبّات الهيل، كانت لمستهن حانية، نظراتهن تُشبه الأمهات حين يُشفقن على أبنائهن العائدين من الموت. لم يسألوا كثيرًا، يعرفون أننا كنّا نحاولُ الهرب من شيءٍ يشبه النهاية.

الخوفُ يثقل الهواء بيننا، كلّ خطوة خارج جدران البيت مغامرة محفوفة بالخطر. الدواعش يبحثون عن الهاربين، عيونهم تمتد إلى كلّ قرية، كل بيتٍ يُشتبه في أنه آواهم. أخفونا كما تُخفى النفائس، غيّروا ملابسنا، اختلقوا أسماءً لنا، كانوا يحيطون بنا كلما مرّ غريب، يقطعون الحديث قبل أن يتسلل الفضول إلى آذانٍ لا تُؤتمن.

حين جاء الوقت، دسّونا بين البضائع، ألقوا أسماءً جديدةً على وجوهنا

القديمة، مضينا متسللين كأننا خطيئةٌ تمشي على قدمين. معي أمجد أبو عمر، رفيق الوجع، رجلٌ تقاسمتُ معه أسئلةً لم نجد لها إجابة، وألمًا لم يكن له دواء، وغضبًا صار لغتنا الوحيدة المفهومة.

لم نكن بحاجةٍ للكلام، فالندم وحده كافٍ ليُشكّل ملامحنا الجديدة. صمتٌ بيننا، صمتٌ يعرف كلّ شيء. كلانا خرج من الجحيم، كلانا تراكم في صدره الرماد والحطام. شيئًا فشيئًا، صار الغضب هو العروة الوثقى بيننا، صار يشدّنا إلى وجهةٍ واحدة، إلى إيمانٍ غير منطوق بأن هذا الخراب لا يترك لنا سوى طريقٍ واحدٍ للنجاة، طريقٍ لم نرسمه بأيدينا، فُرض علينا قَدَر لا فكاك منه.

لم تكن حربنا؛ لكنّها التهمت يقيننا، شوّهتنا، نزعت منا البراءة، والأحلام الموعودة، تركتنا وحدنا في هذا الخراب. بتنا على يقين، أنّ داعش لم تكن يومًا خلاصنا، كانت انعكاسًا لوحشيّةٍ عايشناها بأمِّ أعيننا. كيف اعتقدنا يومًا بأنها خلاص؟ جريمةٌ أخرى في قائمةٍ طويلة من الجرائم، نارٌ تُشعِل رمادًا لم ينطفئ بعد، ومرآةٌ تعكس ثورةَ ندم كنا نحاول دفنها، ثورةٌ أحرقتنا في الكبد، وظلّت تلتهم ما تبَقّى منا على مهل. كلّ الكلام صار عبئًا بعد كلّ تلك السنوات، صوته خافت، يسألني:

ـ وين بدك؟

ـ ما بعرف، بس بدي أطلع من هون، من كلّ هالخراب.

أومأ برأسه، نفهمُ بعضنا دون حديث. اليوم، نحاولُ النجاة معًا، كما لو أنّ ابتعاد أحدنا دون الآخر خيانةٌ لصبرٍ جمعنا بين أنقاض بلدٍ يتهاوى.

نحنُ الهاربون بلا وجهة، كل الطرق تفضي إلى الخسارات. الفرق

الوحيد: أيّ يد ستصفعك أولًا؟ نعلمُ أنّ بغداد ليست لنا، وأن الطرق الرسمية مغلقةٌ في وجوهنا، قررنا أن نسلك طريق من نفِدت خياراته، طريق الفوضى.

انطلقنا من الفلوجة، مدينةٌ اندثرت ملامحها، احترقت حتى لم يتبقَّ منها سوى هيكل رمادي لجثةٍ لم تُدفن. التقينا المهرّب، لا يسأل كثيرًا، لا يريد سوى المال. وأمجد لديه منه ما يكفي للعبور، أو هكذا نظن.

في شاحنةٍ ضيقة، تكدّسنا بين وجوه تشبهنا، القائم، النقطة الأخيرة. الليل درعنا الوحيد، والصحراء تمتد بلا رحمة. قال المهرّب إنه سيأخذنا إلى نقطة العبور، لكنه لم يقل كم ليلةً سنلبثُ في صحراء الخوف والجوع قبل أن نصل إلى البوكمال، أول الخيط في العتمة، ثمّ دير الزور، مدينة الرماد. رائحة الدم تتسلل من الأزقة، الدخان يملأ السماء والجدران المثقوبة بالرصاص تراقبنا بأعينٍ خاوية. المشي بين أنقاضها أشبه بالسير في مقبرةٍ مفتوحة.

ـ لازم نكمل للرّقة، ومنها نتحرك شمالاً.

الرّقة، عاصمة الخلافة السابقة، لم تكن سوى أطلال دولة سقطت تحت ركامها. في الشوارع، في لافتاتٍ نُزِعَ نصفُها وبقي نصفها الآخر يذكّر بالماضي القريب.

هناك، في أحد المنازل المهجورة، اختبأنا ليلتين، وبعدها انطلقنا إلى حلب، المدينة تنبض رغم الخراب. الأسواق عادت تفتح أبوابها. توقفنا قليلًا، بحثنا عن سيارةٍ تقلّنا جنوبًا، إلى آخر الطرقات، إلى مدينةٍ كانت مدينتنا.

في الصباح التالي، دخلنا دمشق. الشوارعُ نظيفةٌ أكثر مما توقعنا، باردةٌ،

رغم الشمس الغامرة لكلّ شيء. وجوهٌ مألوفةٌ. كلّ شخصٍ هنا غارقٌ في حياته، كأن الحرب لم تمرّ به، اختار أن يتعايش معها كشيء طبيعي. وقفنا عند مدخل حي القيمرية، أنفاسنا ثقيلة، أمجد يرمقني بنظرةٍ تحمل نصف ابتسامة.

ـ تتوقع إنها تكون متل ما تركناها؟

ـ أكيد لا.

بلا وداع، بلا موعدٍ قادم، افترقنا أنا وأمجد. الألمُ مختلف حين تعود إلى شيء تعرفه ولم يعد يعرفك، طرقاتٌ حفظت خطواتي لم تعد تشعر بي، هواءٌ يحمل رائحة ياسمين امتزج برائحة غربة. دمشق الحلم، مدينةٌ لم أعد متأكدًا إن كنت أنتمي إليها، بعد كلّ ما مررتُ به. الآن، يا لولو، أنا هنا... رجلٌ يعود؛ لكنّه ليس كما كان.

حي القيمرية كانون الأول/ ديسمبر 2017

***

صوتُ الطالبات يملأ الصف: خليطٌ من ضحكاتٍ متقطعة، عباراتٌ متعثرة، سعادة تتسلل بين الكلمات. جالسةٌ بينهم، أراقب أصابعهم الصغيرة وهي تحاول الإمساك بالقلم، أشرحُ بلغةٍ بسيطة، أبطأ، كمن يزرعُ الصبر بين السطور. ثمّ، اهتز هاتفي. الشاشة تومض.. إشعارٌ صغير منبثقٌ من أعلى الشاشة: سطْرٌ وحيد حملَ حفلةً في صدري:

«رسالة جديدة من عصام».

توقفتُ للحظةٍ. عيناي علقتا على الشاشة، استمرت أصواتُ الأطفال تتدفقُ حولي، بعيدةٌ، تنتمي إلى عالمٍ آخر. قلبي يهتف: «عصام؟ عصام رد علي؟؟»

لم يكن الوقتُ مناسبًا، الصفُّ أضيق من أن يتّسع لارتباكي. طالبةٌ ترسمُ خطًّا عشوائيًا على ورقتها، تتقدم لي، عيناها تلمعان بفخرٍ رغم أنّها لم تخُطَّ شيئًا مفهومًا. ابتسمتُ لها، يدي تشتعل فضولًا، أن تمسك الهاتف، أن تفتح البريد، أن تغوص في كلماتٍ جاءتني من بعيد بعد طول انتظار، بعد صبرٍ وأحلام.

أخذتُ نفسًا، «صبري لولو.. مو وگته الحين». قلتها في داخلي، كمن يواسي نفسه. شيءٌ ما في قلبي يعرف.. يعرفُ أنني أكثرُ عجزًا من أنْ أصبر، على ثقةٍ بأن هذه الرسالة لن تكون عادية، وأنّ شيئًا ما في عالمي سينقسم إلى نصفين.

اقتحمتُ البريد الإلكتروني، أردتُ أنْ أطمئن، فقط أطمئن، رسالةٌ طويلةٌ مرهقة، قادمةٌ من عالمٍ مجنون، عالمٌ ملغّمٌ بالدم. نظرتُ إلى اسمه، إلى الكلمات الأولى، بدأت أقرأ، بدأتُ أغرق.

عصام يكتب كما لو أنّه يُفرغ ذاكرته على ورق، سطورٌ ثقيلة، محملةٌ بأكثر مما يمكن للعقل أن يحتمل. دمشق، الموصل، رحلةٌ ابتلعتهُ، لفظتهُ شخصًا آخر، بجسدٍ محطم ونفسٍ أكثر تهشمًا من عظامه.

أقرأ ببطء، أخشى أن أصل إلى السطر التالي، أخشى أن أرى عصام هناك متوجعًا، مرهقًا، مستلقيًا على سريره، بكسرٍ في داخله.

ما وجدته أكثر من ذلك، نافذةً مفتوحةً على جحيمٍ لم أتخيله، رحلةً، كتبها، مفصلةً، مرهقةً، كأنها ندوبٌ على ورق. سافرت عيناي بين السطور من جديد، دمشق، الموصل، ثُمّ العودة بنفسٍ مهشّمةٍ، بجسدٍ محطمٍ، بكسرٍ في الحوض وكسورٍ لا تُرى، تنهشُ داخله. كلماتٌ ثقيلة فوق الشاشة، تحوّلها إلى مرآة تعكسُ صورة رجل عاد؛ لكنّه لم يعد.

أحسستُ بروحي تهوي مع كلّ تفصيل، أراه هناك، في العراء، منهكًا، مكسورًا، غريبًا عن جسده. ابتلعتُ ريقي، أعيد قراءة السطور الأخيرة. أبحث عن شيء، عن تفسير، عن مخرجٍ لهذا الشعور العالق في صدري. البريد انتهى، بقيتُ أنا، متوحدةً مع ثقل الكلمات، مع صورة عصام وهو يعبر الخراب ثُمّ يعود، إلى عزلةٍ تحمل داخلها حربًا لم يخرج منها سالمًا.

حاولتُ أن أغمض عيني لأستعيد أنفاسي، الرسالة تلمع على الشاشة كجرح مفتوح. رجلٌ يعود؛ لكنّه ليس كما كان.

لم أعرف ماذا أفعل. أغلقتُ البريد، ضغطتُ بهاتفي على صدري، أشكر سلامته في قلبي، أضمُّ بريده، أطمئن على عصام رغم أنّ المسافة بيننا، حدودٌ أصبحت تقاس بالخسائر.

وضعتُ الهاتف جانبًا، سحبتُ نفسًا طويلًا، الهواءُ لم يصل إلى رئتيّ، رغبة تحتل كلّ مساحة في صدري.. تخنقني. أريد أن أراه، أسمعه، أحادثه، أكتب له، أقولُ شيئًا..

أعدتُ قراءة الرسالة ثلاثًا.. ثلاثين؟ لا أدري... كلّ ما أعرفه أنني أعود إلى الكلمات نفسها، أحاول أن ألتقط بين السطور أثره، وأسمع صوته، وأفهم ما لم يقله بعد. كلّ مرّة أقرأها، تضربني بطريقةٍ مختلفة، الكلمات تنزفُ أكثر كلما كررتها.

أدركتُ حينها أنّ كلّ الذين عادوا من المعارك سالمين، لم يعودوا أنفسهم. الحرب لا تقتل فقط، هي تُغيّر من تبقى.

***

حكواتي النوفرة

أربع سنواتٍ مرّت بعد حادثة التحرش بجُمان، سنواتٌ ثقيلة، كفيلة بتحويل حياتنا إلى حقلِ ألغام. كنتُ أُقَدِّمُ لها ما أستطيع من حبٍّ ودلال، كمن يحاول عبثًا أن يُصلح شيئًا تهشم بيديه. شعوري بالذنب وحشٌ ظلّ ينهشني ليل نهار، يجعلني ألينُ لها في كلِّ خلاف، أطاوعُ تمردها، أتحمل إساءتها كعقابٍ أستحقه، وكأنني أُكفّر عن خطيئة لا تنتهي.

لم تهتم لوجعي، لم تشفق على ما يعتمل في داخلي من ندمٍ. لم ترَ في محبتي سوى ضعفٍ، وفي أسفي سوى كلماتٍ جوفاء لا تغني ولا تسمن. أراها تكبر أمام عينيّ، وتكبر المسافة بيننا.. تتسع في كلِّ يومٍ يمر.

في بداية عام 2018، شعرتُ بأنّني بحاجةٍ إلى شيءٍ مختلف، محاولةٍ أخيرة تُعيد بناء شيءٍ بيننا، أو ربما كانت حيلة، هروب مما مررنا به إلى وجهةٍ جديدة، نُعيد فيها ترتيب علاقتنا بعيدًا عن مسافاتٍ قريبة بيننا.

اقترحتُ عليها أن نسافر لقضاء إجازة الربيع في بيت خالي، رحّبت بالفكرة. لم تتردد، كأنها، مثلي، تُراهن على هذه الرحلة.. تريد أن تختبر إن كان بيننا شيءٌ يمكن استعادته، أم أننا صرنا غرباء يُعيدون قراءة قصة قديمة دون أن يشعروا بشيء من الحنين.

وها قد مرّت قرابة سنةٍ منذ عودة عصام، رجلٌ هجرني منذ سنين، امتنع عن النظر إلى توسلاتي، وبات سجينًا في عالمه، حالةٌ نفسيّةٌ مترديّة دَفعتْ به إلى عزلة، عجزٌ فرضه عليه الجرح، قال لي خالي:

ـ تعالي.. بلكي تقدري تخففي عنه وتكوني جنبو بهالوقت.

ينتظرنا البيت الكبير، واسعٌ أكثر مما نحتاج، جدرانه ساكنة؛ لكنها ليست فارغة، تمتلئ بضحكاتٍ قديمة، بأصواتٍ لا تزال عالقةً بين الزوايا.

سيكون هناك أطفال: عبير وعامر، ستمتلئ أروقة البيت بشقاوتهم، بضحكاتٍ تركض في الممرات، تصعد الدرجات بسرعة، تقفز فوق الأرائك دون خوف. تلك الرحلة قد تكون بدايةً جديدة، لي ولجُمان... وربما لعصام.

هذا البيت يحملُ أكثر مما يبدو عليه؛ بابٌ مفتوحٌ على طفولتنا، على ماضٍ لم يُغلق تمامًا، على قصةٍ لم أعرف بعدُ: هل انتهت، أم أنها لا تزال تبحث عن نهايةٍ أخرى؟

جمعتُ حقائبنا، أمسكتُ يد جُمان، رحلتُ بها إلى هناك، إلى حيث بقي الحنين. إلى بيت الخال، إلى أزقةٍ حفرت خطواتنا على حجارتها، إلى عصام، إلى كلّ شيء تركناه هناك. علّ هذا السفر يكون شفاءً لبعض الجراحات، أو ربما كنتُ أخدعُ نفسي، أُمَنِّيها بحلمٍ قديم، بوعدٍ لم يُنطَق، أو بذاكرةٍ لم يعد لها أثرٌ إلّا في رأسي.

***

على امتدادِ ثلاثة أسابيع، دمشقُ تفتحُ ذراعيها لجُمان، كما لو أنّها تُعيد خلقها، تمنحها نسخةً أخرى من نفسها، أجمل، أنقى، لم تعرفها من قبل.

كلّ صباح، تنهضُ بلهفة طفلةٍ اكتشفت للتوّ أنّ المدينة تنتظرها. تركض بين الأزقة العتيقة، تتلمس الجدران. أراها تتنفسُ دمشق كأنها تحاول أن تمتلئ بها، أن تحفرها في قلبها قبل أن تغادر.

أيامٌ أشبه بنسمةٍ باردة في صيفٍ قائظ، أو طوق نجاةٍ في بحرٍ متلاطم. وربما، كانت هذه الرحلة الخطوة الأولى نحو استعادة طفولتها المفقودة.

في بيت خالي، الضجيج مختلف، ضحكاتٌ تتردد بين الحجارة العتيقة، أصواتٌ خفيفة، تصدح بقوةٍ في أرجاء الدار.

ندى ابنة عامر.. دارين وكِندة، شقيقات الفرح، التوأم المفعم بالحياة، بنات عبير، في مثل عمرها، جاءتا في إجازةٍ قصيرة، ولم يمضِ كثيرٌ من الوقت حتى تآخت معهما، كأنهن وُلِدنَ في اليوم نفسه.

كلّ ساعةٍ من يومهن تمتلئ بالضحك، والركض بين الممرات الحجرية، بهمساتٍ صغيرة مختبئة فوق الدرجات، بالسهر في باحة البيت، حيث النافورة الصغيرة تصبح ملعبًا للماء، تتناثر القطرات بين أيديهن كما لو أنهن يتقاسمن الفرح.

في المساء، الأسواق العتيقة وجهتهن المفضلة، يمشين بصحبةٍ جماعية في شارع الحميدية، يشترين الحلويات الشرقية، يتذوقن بوظة بكداش الدمشقية.

في عطلات نهاية الأسبوع يصطحبهن خالي إلى المنتزهات، يتبارين

في التقاط الصور عند الأبواب العتيقة، يتسابقن على الأرجوحة الخشبية تحت شجرة النارنج.

شيئًا فشيئًا، كنتُ أرى جُمان تتحرر من أثقالٍ حملتها طويلًا. كأن الشام تنفخ في روحها هواءً جديدًا، تملؤها بشيءٍ يشبه الطمأنينة وتعيد ترتيب روحها.

في نهاية الأسابيع الثلاثة، كانت قد كبرت صداقتها مع دارين وكِندة وندى، وكبر في عينيها معنى الانتماء، معنى أن تكون محاطةً بعائلةٍ تحتضنهاِ بالحفاوة والطيبة.

كما تنبأ خالي، وجودنا أعاد شيئًا من عصام، شيءٌ يشبه الحياة. يقف بين الصبايا كحكواتي مقهى النوفرة، يمضي بنا بين أسواق دمشق: الحميدية، باب توما، الشاغور، يستخرج من ذاكرته شذرات الطفولة، طفولة تناثرت بين دكان توابل، ومصنع قمر الدين، يروي كيف تحوّلت العجينة إلى صفائح من ذهب، وكيف غدت الشاورما بيديه سيمفونية للحواس. كيف يقطّع اللحم، ينقع المخلل، يُصفّ الشرائح، كلّ طبقٍ يصنعه، من الكبة إلى الفتوش، من التبولة إلى الكنافة، المطبخ عنده، مسرح، والطناجر جمهور يصفّق. وفي الركن، جُمان تحدّق، عيناها تختزن ألف دهشة، تتلقّف كلماته كمن يعثر على كنزٍ دفين، تضحك حين يضحك، وتقلّده بلهجته الشامية كأنها تتعلّم وطنًا جديدًا.

كنتُ أراقبها، وأراقبه...

وأدرك أن بعض الفرح لا يُصطنع، وأن ضحكة جُمان قد تكون أحد أسرار النجاة، وأن عصام، في تلك اللحظة، لم يكن مجرد حكواتي ...كان الحكاية ذاتها.

يُذكّرنا... يذكرني بضحكات خبّأناها في زوايا الأيام، بشتائم صغيرة كانت تُقال كأنها رسائل حبّ مستترة. يسخر من دمعتي، كعادته: ليزازو أم دميعة!

يُقلّدني، يُعيد كلماتي بتهكّمٍ حنون، نستعيد طقوس شجارنا، نرمي الكلمات كألعاب نارية، تنفجر... ثم نضحك، دون أن نعرف من أشعل الفتيل.

والآن؟ ها هو بيننا، كأنّ الصوت الحزين في نبرة خالي لم يكن. لكنّه كان... عصام يُتقن الهروب خلف الدعابة، يزرع الضحك بعناية، كمن يملأ الهواء بشيءٍ آخر غير الأسئلة.

راقبته... ضحكاته عالية، في صداها نغمة غريبة، كأنّه يروي حكايته ليصدّقها، ليُقنع نفسه أولاً أنّه بخير.

***

تسلل المساء إلى باحة بيت خالي جالبًا معه هدوءًا شفيفًا، البيت يتنفس ببطء بعد ضجيج النهار. خرج الجميع في نزهةٍ طويلة، بقيتُ وحدي مع عصام، جلستُ على أحد المقاعد الحجرية، أتأمل انعكاس أضواء المصابيح القديمة على أرضية الفناء، ضوء مرتعش، يشبه ذاكرة تومض وتنطفيء.

وسط هذا الهدوء، لفتتني خطواته، حذرة، ثقيلة، يستند إلى عكازه كمن يحمل على كتفيه عمرًا. رفعتُ بصري نحوه، التقت نظراتُنا، في لحظةٍ واحدة، تولّدت عاصفة: خليطٌ مربكٌ من اللوم والعتب، ظننّا أننا تجاوزناه؛ لكنّه ينتظرنا هنا في هذا المساء البارد ليعيد فتح أبوابٍ.. لم تفتح حتى تغلق.

وحدي معه. خطواته الحزينة تقترب ببطء، كأنه يخطو فوق أرضٍ زلقة، عيناه تتأرجحان بين تردد وشك، بين ما يريد أن يقوله وما يخشى سماعه. قلبي يستبق المشهد، مشهدٌ رسمته آلاف المرات في خيالي، هو الآن حقيقي، لا مهرب منه.

منذ وصلتُ إلى بيت خالي وأنا أرتجف خوفا من هذه اللحظة تحديدًا، من الأسئلة المحرّمة، الآن هنا، وجهًا لوجه، بلا حواجز.

يقف صلبًا أمام ما سيقوله. شدّ قبضته على عكازه. ليخرج صوته موشكًا على الانفجار:

ـ شو بالنسبة لفكرة زواجك التاني... كمان غصبن عنك؟!

بمرارة سنوات قلت:

ـ ما گدرت أوگف بوجه إخواني، بمجتمع ما يرحم المطلگة، إنته رحت، تركتني بروحي، صغيرة وخايفة، تعلگت بأي وسيلة نجاة.. حسبته خلاص.

لم أكن بحاجةٍ لأبرر أكثر. كلّ ما أردته أن يشعر، أن يلمس ألمًا ظللتُ أخفيه، خوفًا من أن يزداد ثِقلًا لو نطقت به. جاء صوته، هشًا:

ـ كسرتيني فوق كسري.

كلماته ليست جارحة بحدّتها، هي مؤلمة بصدقها.

وقفتُ أمامه، والوجع يتنفس معنا، يئنُ كجرحٍ لم يُحسن أحدُنا علاجه. ركضتُ نحوه، أضمّه، أقبله، احتضنه طويلا، أحاول أن أحتوي سنواتٍ فرّقتنا، أضمدُ مسافات سرقتها الأيام منا. بكينا معًا، بكينا بوجعٍ قديم، بكينا طفولةٍ ضاعت، شبابٍ صار أشبه بذكرى ممزقة. بكينا قسوة اجتاحت قلبينا

قبل أن ندرِك كم نحن بحاجةٍ لهذا العناق، وهذا الاعتراف المتأخر بأننا رغم كلّ شيء... لم نتوقف يومًا عن انتظار هذه اللحظة.

همستُ له، أبوحُ بحقيقةٍ دفنتها في صدري طويلًا، وانتظرتها منه عمرًا:

ـ أحبك، عصام أحبك. ما عمري حببت بحياتي غيرك. صحيح تزوجت.. انفصلت.. فكرت بزواج ثاني بس أنت أول رجال وآخر رجال.. واللّهِ العظيم إنته الوحيد في گلبي.

كان انكشافًا كاملاً...انهيارًا لجدارٍ ظلّ يحرس صمتي لسنوات. واجهته بكلّ ما فيّ من شوقٍ عتيق، قلتُ له بعيني هذه أنا... لم أتغيّر، ما زلتُ أعشقك.

الزمن توقّف، لا ماضٍ، لا غد، فقط لحظةٌ تتّسع لما لم يُقَل، لحنٌ قديم انبثق من الذاكرة، من زمنٍ كنا نسرق فيه الحبّ خفيةً، نهرب إلى صوت ميادة: «أنا بعشقك، أنا...»

ضمّني كما لو أنه يستردّني من الغياب، أو يمسك بظلّي قبل أن يُمحى من الضوء.

قبلة واحدة...

حملت وجع الفقد، وحنين السنوات، وندمًا ثقيلًا لا يُقال. ثم نطقها... كلمة صغيرة خبأها كلّ العمر في ضلوعه، خرجت كما يجب أن تخرج:

ـ بحبك، لولو، بعشقك. يا اللّه لو تقدري تشوفي حبك جوّاتي..

الضحك والبكاء وجهان للدهشة ذاتها. لم أظنّ أن هذه اللحظة ستأتي، لكنّها جاءت... بصوته، بين يديه. ضحكتُ وبكيت، وهو يكرّرها، يُقنع نفسه أنه قالها حقًا، أنه ينطقها لنفسه أولًا، قبل أن يمنحها لي.

أخيرًا قالها

أردّدها داخلي كتعويذة،

لا أريد لهذه اللحظة أن تنطفئ، لا لصوته أن يضيع مجددًا في صمتٍ أعرفه. باعترافه، فتحنا بابًا ظننّاه موصدا للأبد، بابًا يُفضي إلى كلّ الحب المؤجل، والمشاعر التي دُفنت حيّة، فإذا بها تنهض... كأنها لم تُغادر يومًا.

لأول مرة منذ ولدت، أشعر أنني لستُ مجرد خيالٍ يمضي في الحياة، لستُ مجرد أمٍّ تنوء بحملِ الفقد، ولا امرأة تقاوم الانكسار بصمتٍ لا يُسمع.

أنا ما زلتُ حيّة..

أنثى في مطلع الثلاثين، أنثى تنبضُ، تستعيدُ شيئًا تلاشى بين الأيام، شيئًا كاد أن يُمحى، تدرك، أنّه لم يختفِ، ينتظرُ لحظةً كتلك لينبعث من جديد.

نظرتُ إليه، إلى وجهه المرهق، وابتسامته المشبعة بالعشق.

في تلك اللحظة، أدركتُ...

الزمن يسرق كلّ شيء، إلّا ما نخبّئه بصدقٍ في القلب. كلّ ما حولنا ذاب، كأنّ الوقت انحنى ليمنحنا هذه المساحة النقية... بلا زمن، بلا قيود. انفصلنا عن العالم، صرنا وحدنا، في كونٍ لا يخصّ سوانا.

دموعنا تنساب، حارّة، صامتة، تحمل عزاءً لماضٍ رحل، وطمأنينة لحاضرٍ طال انتظاره.

رغم خجلي، ورغم أنّه يعرف كم أنا خجولة، كنتُ أنا من كسرت الصمت. أنا من تجرّأت على فتح الباب، لأنني أعلم؛ عصام لم يتزوج،

لأنه يخصّني. لي وحدي. يحبني كما لم يُحبّ أحدًا، يخبّئني بين ضلوعه منذ كنا طفلين، كلّ نظرةٍ، كلّ تلعثم، كلّ صمتٍ منه، كان اعترافًا مؤجّلًا لا أعرف لماذا لم يخرج. لم أعد أطيق الانتظار، قلتُها:

ـ عصام! خلّنا نتزوج.

ـ باللّهِ؟ وأنا بهالحالة؟ ما عندي شغل.. محل الشاورما بعتو وحتى ظروفي الصحية ما بتساعدني.

أمسكتُ يده أُقبلها برجاءٍ:

ـ بالعلاج الطبيعي رح ترجع أفضل من الأول.. وإذا محتاج فلوس لمشروع.. أكدر أوفرها لك. أروح البحرين آخذ قرض.. وأرجعلك.

وكأنّه لم يسمعني، في عينيه تردّدٌ، وفي داخلي يقين لا عودة منه. همس:

ـ عم فكّر بالهجرة... ما عاد إلي وطن هون.

ـ وين؟

ـ عبير عم تقدّم لي أوراق لجوء للسويد، بفكّر أطلع تهريب على تركيا.

ضحكت، كأني أراوغ قدري:

ـ والبحرين؟ تعال وياي... حقق أمنيتي تكون يمي في بلدي.. نفتح لنا شباك شاورما، نعيش گبال البحر، نبتدي من تراب يعرفنا أقلة.

رمش بعينه ببطء، وبصوتٍ يشبه التنهيدة القديمة:

ـ البحرين حلوة بس مو لإلي.. ما بتشيل عني وصمة... ولا تمحي اسمي من الشبهة.. ما بتنسّيهم إني ابن هداك الاسم.. لولو أنا ما بدي شباك وبس... بدي دولة تخلّيني أنام وما خاف من الباب، بدي بلد تعطيني حق

اللجوء وتضمني وتضم أولادي من بعدي... مو لأنّي نسيت بلدي، بس لأنّي تعبت أشرح للعالم إني بني آدم.

ـ قرر وين وبروح معك... أنا وجُمان، لو وين ما بدّك بنروح معك.

رأيتُ لمعةً سريعة في عينيه، لكنّه لم يفتح الباب للفرح، القلق ظلّ مُقيمًا على ملامحه. قال بصوتٍ فيه ارتباك لا يخفيه:

ـ خلّينا نمخمخ... نتكتكها صح.

يريد أن يُقنعني أن الحبّ يُوزَن، يُراجع كخطة هروب. لكني لم أكن مستعدة أن أكون خيارًا، ولا احتمالًا مؤجلًا على هامش حياته. مددتُ له يدي، كمن يتشبّث بخيط شمس قبل غروبها الأخير، ثم همست:

ـ خليني بالحسبة شلون ما كانت، بروح وياك لو آخر الدنيا. مستحيل تضيع مني مرّة ثانية.

أردته أن يفهم:

أنا لستُ ورقةً يعود لها إذا بقي مقعدٌ شاغر. أنا اليقين الذي لا يُؤجل. **أنا في حياته قَدَر، ولا رجعة في القدر.**

***

منفى ناعم

لم يشأ عصام القفز في المجهول من جديد، خطواته محسوبة، دروبه ممهدة بعناية. احتاج عامًا ونصفًا من التمحيص والتروي، لا شيء يُترك للصدفة، أو لعاطفةٍ عابرة. يدرك أنّ الزواج ليس رابطة وعقد فقط، هو مشروعٌ يحتاج إلى خطة متكاملة، خاصةً عندما يكون متشابكًا بالهجرة، بالفراق الطويل الذي ترك شرخًا لم يندمل حين تركته وتزوجتُ وأنا لم أبلغ السابعة عشرة. قال أنني كسرته، فلا عجب أنّه احتاج كلّ هذا الوقت ليعيد ترتيب الخراب داخله، ليقتنع، ليُقدِم، ليرسم الخطة كما يجب.

كثرت أسفارنا، أنا وجُمان، إلى الشام قبل إعلان الزواج. جُمان تترقب إجازات الصيف ومنتصف العام، تُهيئ نفسها للسفر بشغف الطفلة التي تعيش الفصول بانتظار عودة الربيع، وأنا... كنتُ أشدُّ شوقًا منها. سفرٌ كان انغماسًا في زمنٍ مضى، أصبحت بعيدة عن حياتي في البحرين كأنني أُمهّد للرحيل الأكبر دون أن أدري، أجرب الغياب على جرعات، أهيئني لهجرةٍ لا عودة فيها إلّا زائرةً.

في ربيع 2019، عدتُ إلى البحرين، انتظرتُ أن تنهي جُمان امتحاناتها،

كنت بحاجةٍ إلى تلك الفترة لأهيئها لقرار الهجرة. توقعتُ أن تتردد، تعترض، لم تفعل، سعيدةٌ، متحمسةٌ، قلبها ينتظر هذه الخطوة، لتكون بقرب كِندة ودارين، أخبرتها عن قرار زواجي من عصام، لم أرَ في وجهها شيئًا، لا ترحيب، لا نفور، نظرةٌ هادئة، تخبئ رأيها في فكرٍ لا يمكنني التكهن به. لم أشكّك في قراري، مقتنعةٌ به، مقتنعةٌ بوعدي لعصام، ومتمسكةٌ به.

قررتُ التقاعد. أنهي كلّ شيء في البحرين، وأبدأ حياتي الجديدة معه. ظننتُ أنّها خطوةٌ صعبة، خصوصًا وأنني لا أملك سنوات خدمة كافية، فجاءت مفاجأة لم تكن في الحسبان، قرارٌ من جهاز الخدمة المدنية بفتح باب التقديم لبرنامج التقاعد الاختياري، امتيازاتٌ وعروضٌ لم أكن أحلمُ بها. الحياة تبارك قراري إذن، تسير معي أخيرًا. القدر.. بعد كلّ ما أخذ مني، يمنحني شيئًا دون تعقيد ومقاومة.

في آب 2019، سافرتُ مع جُمان إلى الشمال التركي. هناك عقد قراني أنا وعصام عند بحيرة أوزنجول. بحضور خالي وعامر، وعبير وزوجها وبناتهم، وحليمة، وزوجها، وأبناؤها.

لم أكن عروسًا، كنتُ امرأةً تستعيد نفسها من الرماد. ارتديتُ فستانًا أبيضَ بسيطًا يشبهني، بلا بهرجة، فقط بياضٌ يشبه شعور السلام. في تلك الأرض الخضراء، تحت شمسٍ رقيقة، شعرتُ أن الجمال تآمر ليشهد فرحتي.

عشتُ أجمل أيامي بين عصام وجُمان، مع عائلتي، مع شعورٍ جارح في جماله: أنني وصلت، أخيرًا، حيث يجب أن أكون. أضحك من عمقٍ لم أعرفه من قبل.

عصام يمسك بيدي كما لو أنها يقينه الأخير، ينظر إليّ بعينين تمتلئان كما لو أنه لا يصدق، لم يبقَ سوى أن نُصدق أننا نجونا.

كنتُ أركض فوق العشب المبلل كطفلةٍ تُجرب الحياة، وهو يراقبني يحرس ضحكتي، ويُشعرني أنني أميرة هذا العالم.

يهمس:

«عيشي... حتى لو تفركشتي، أنا هون حدك».

كل شيء مختلف..

شهرُ عسلٍ كما تخيلناه؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

لا.

أجمل. أجمل من كلّ سيناريوهات رسمناها، أجمل من كلّ أحلامٍ حيكت على عجلٍ ونحن نخطط لحياتنا معا. كنا نظنّ بأن السعادة لها شكل معين، وأن الحبّ يمكن قياسه بمدى توافق الخطط، اكتشفنا أنّ السعادة لها عدة أوجه بسيطة؛ لحظة واحدة صافية، همسة قبل النوم، يدٌ تمتد تحت الطاولة لتلمس الأخرى، نظرة تسبق الضحك.

ـ أخيرًا، صرنا سوا.

يهمس بها عصام كمن يضع ختم الخلود على لحظةٍ نضجت من عمرين. كأنّ كل الطرق التي سلكناها لم تكن عبثًا... كانت تصبُّ هنا.

أستيقظ على دفئه، وذراعه التي ترفض أن تتركني، على صوته المتكاسل وهو يهمس:

ـ بعد شوي... لا تقومي.

نعيش الأيام ببطءٍ متعمد. هذا الحب حقيقة لا يشوبها شك، طريقتنا لفهم هذا العالم، نضحك من لهجاتنا المتداخلة، هو يعشق بحرينيتي، وأنا أذوب في شاميته، نتشاجر على الكلمات، ونصنع منها مودةً لا تُفسَّر.

ـ احكي بحريني، بتطلع من تمك أحلى.

ـ وأنا بحب لهجتك أكثر.

كنتُ أقلده لأغيظه، ولأحمل شيئًا منه في صوتي.

حين ارتدى بدلة الزفاف، بدا وحده متّسقًا مع كلّ شيء؛ تقاسيمه واضحة، كأنّ الزمن صقلها، وملامحه كما لو نُحتت على مهل، محاطة بالهيبة، مشبعة بالحكايات. جبينٌ واسعٌ يشبه شرفةً تطلّ على ما لا يُقال، وشعرٌ مرتّب بعفويّة، وذقنٌ حادّ، لحيةٌ مرسومةٌ بصرامةِ رجلٍ لا يُفرّط بسهولة، عيناه بندقيّتان، بلون الضوء حين يخترق الزجاج نظاراته تزيدهما عمقًا، ابتسامته لا تأتي عبثًا، لا تفلت بسهولة، تُشبه وعدًا بالنجاة. وإن أزهرت، تصير صباحًا صافيًا بعد مطر، لا يفعلها ليكسر الحواجز، يفعلها ليقول: أنا هنا، بلا ادّعاء، بلا أقنعة.

هو رجل... لكنّه، بطريقةٍ ما، يشبه كلّ ما تمنّيت... وأكثر.

رجل يعرف متى يحب،

ومتى يُوجع امرأة لسنوات...

ثم يعود، ليحبّها أكثر، كما لو أنّه يكفّر عن العالم كله.

***

كلّ شيءٍ محسوبٌ، كلّ خطوةٍ مدروسةٌ بدقة، رغم ذلك، لا توجد ضمانات، كلّ الاحتمالات واردة، لكننا نأملُ أن تسير الأمور كما خططنا. الخطة واضحة على ورق، هي في الواقع، عبور فوق خيطٍ رفيع بين الممكن والمستحيل، بين النجاة والضياع في متاهة الحدود.

حليمة ستعود مع أسرتها إلى البحرين، أنا وجُمان سنرافق عبير وأسرتها إلى السويد، دخولًا عبر فيزا شنغن السياحية، سنعبر بصفتنا مواطنتين بحرينيتين، بسلامٍ وطمأنينة ظاهرية، بينما في داخلنا، نحمل قلقًا لا يفارقنا. خالي وعامر سيعودان إلى سوريا، بالمعبر نفسه، متسللين، متجنبين العيون المترصدة.

عصام.. سيخوض الرحلة الأصعب، يسلك طريقًا محفوفة بالمخاطر، يعبر مثلما يعبر الحالمون المكسورون، متاهة معقدة بين مهربين، وأوراق مزورة، وخوف يرافقه في كل خطوة.

يحمل جواز سفرٍ لا يخصه، اسمًا آخر بملامح تشبهه، حياة جديدة مكتوبة فوق ورق هش. الرحلة تبدأ من تركيا، مع قافلة صامتة، يختبئون تحت الليل مع المهربين، الذين يبيعون الحلم مقابل المال، لا يسألون، ولا يجيبون، يقودون المهاجرين عبر جبال وأنفاق، وطرقٍ خلفية لا تعرفها الخرائط.

سيعبر البحر بالقارب الصغير، فإذا وصل، سيجد نفسه في اليونان، المحطة الأولى التي لا ترحب بأحد، تطارد اللاجئين كعبء ثقيل، لا تمنح سوى انتظار طويل في معسكرات تجرّد الإنسان من إنسانيته. من هناك، سيكمل الرحلة مختبئًا بين القطارات، والحافلات في مدن لا تفتح أذرعها لأحد، حتى يصل إلى السويد، حيث ينتظره قدره المجهول.

كل خطوة محفوفة بالخطر، وكل عين تراقب قد تكون النهاية، كل حاجز أو شرطي حدود لديه صلاحية إنهاء أرواح الهاربين. عصام لم يكن يخشى الموت، كان يخشى الفشل، أن يعلق بين الحدود، أن يُقبض عليه، أو يُعاد من حيث جاء.

كنت أنتظره عند عبير، حيث يُفترض أن نبدأ حياة جديدة. قلبي معلّق بتلك الرحلة، أعيش على قيد رسالة، مكالمة، إشارة بأنّه ما زال يعبر، أنه لم يسقط في فخ القدر، وأنه لم يصبح مجرد اسم يُضاف إلى قوائم مفقودة.

عصام... بس تعال.

***

وصل. القدر تلطف وعاد لي.

وجهه رماد سفر، وعيناه، بقايا بحر مالح. أردتُ تفاصيل حكايا الوحشة، لكنه عانقني هامسًا:

ـ وصلت، لولو. خلص وصلت وهاد بيكفي.

ليلةٌ هادئة، وسط برد السويد، في طيات ثوبها الأبيض، يلمعُ شيءٌ آخر... حياةٌ جديدة تتشكل كبلورة ثلج بديعة تهديني فرحةً لم أعتقد أنني سأشعر بها من جديد. احتفلنا ببشارة حملي في بيتِ عبير على ضوء الشموع، دفءُ المدفأة أضاف للمحيط لمسةً من حميمية تفتقدها المنافي.

بيت عبير في نورشوبينغ، مدينة صغيرة شرقي السويد، ساعتان عن ستوكهولم، تتداخل فيها الأبنية القديمة بالحديثة، تلتقي الأنهار بالجسور الحجرية، شتاؤها طويل، الأرصفة تلبس الثلج، والبيوت تنبض بدفء القرفة والشاي.

بيتها بسيط، لكنّه مليء بالحياة، بضحكاتٍ لا تهدأ، وجلساتٍ دافئة حول طاولة المطبخ. جُمان مع التوأم في غرفتهما، بينما صارت غرفة الضيوف زاويتنا، مكانٌ مؤقت، لكنه لنا، محطة نرتّب فيها أنفاسنا قبل أن نبدأ الطريق. مكتبة سُر مَن قرأ

بعد شهرين، جاء القرار؛ مؤسسة الرعاية الاجتماعية تخصّصَ لنا منزلًا في سودرتاليا، مدينةٌ تحولت إلى وطنٍ ثانٍ للمهاجرين العراقيين والسوريين. لم تكن قريبة من نورشوبينغ، لكنها أيضا لم تكن بعيدة عن القلب. هنا، لا نشعر بالغربة كما شعر بها القادمون الجدد، كلّ شارعٍ يردد صدى لهجاتٍ مألوفة، محلاتٌ تحمل أسماء عربية، مقاه تبيع القهوة المُرّةَ كما تُقَدَّم في الشام وبغداد، مساجدُ ترتفع فيها أصوات الأذان وسط خرس المدن الشمالية.

منزلنا شقة صغيرة في مبنى سكني، في الطابق الرابع، نوافذُه تطل على شوارع تغطيها الثلوج شتاءً، تُزهر فيها الأشجار في صيفٍ قصير. لم يكن منزل أحلامنا؛ لكنّه بداية، بدايةٌ لحياة جديدة، ووطنٍ صغير يجمعني بعصام وجُمان، وطفلنا الذي يحمل في دمه ذاكرةَ أرضٍ غادرناها بأحلامٍ مؤجلة.

في سودرتاليا، أدركتُ شيئًا مختلفًا، أدركتُ أنّ الغربةُ ليست مدينة، أو لغة، أو مسافات بعيدة. الغربة ألّا يكون لك مقام تنتمي إليه.

وهنا لم أعد أشعر بغربتي لأنني برفقة عصام، وجُمان، وطفلٍ صغيرٍ ينمو في أحشائي، يذكرني بأنّ الحياة، رغم كلّ شيء، ما زالت تمنحنا فُرصًا أخرى.

عصام، ما إن وطأت قدماه أرض السويد حتى أخذ يستعيد نفسه، وصوله

بداية لسباقٍ مع الزمن، لتعويض العمر، لاستعادة الحياة، لانتزاعها. لم يسمح لشعور الغربة أن يطأ قلبه لحظة، انطلقَ كما لو أنّ هذه الأرض ملكٌ له منذ الأزل، كما لو أنّه يتحيّن هذه الفرصة منذ سنوات طويلة.

أول سعيه الحصول على سكنٍ دائم لنا، منزلٍ نبدأ فيه حياتنا الجديدة دون الشعور أننا مؤقتون، أو عابرون. يتنقل بين مكاتب الإسكان، يستعلم، يتفاوض، يتقدم بطلب مستعجل، يبحث عن أيّ فرصة تُسرّع حصولنا على بيتٍ يكون ملكنا، أو على الأقل، يكون لنا فيه خصوصيتنا دون الحاجة لمساعدة السوسيال.

تقدم بطلب اللجوء. في ملفهِ ذكر أنّ أخته عبير وأسرتها يحملون الجنسية السويدية، أمرٌ قد يُسرّع قبول طلبه، أو على الأقل يمنحه بعض الاستقرار القانوني خلال فترة الانتظار. النظام السويدي يسمح في بعض الحالات بالنظر في الروابط العائلية كونها عاملًا مساعدًا، لم تكن هناك ضمانات، البيروقراطية تبطيء عجلة القرار، وعصام يحلمُ بجنسيةٍ ثلجية مباركة.

متابعٌ لكل خطوة، يراجع مكاتب الهجرة، يرسلُ استفسارات، يتأكدُ من كلّ وثيقة، يخوضُ حربًا أخرى، حربًا بلا سلاح هذه المرة، لا تقل أهمية عن أي معركة خاضها في حياته.

لم يكن الأمر إجراءاتٍ روتينية بالنسبة له، يدرِك أنّ الجنسيّة السويدية ليست ورقة فحسب، هي درعٌ، حمايةٌ، فرصةٌ لحياةٍ لا يهددها الطرد أو الترحيل أو الخوف من المجهول.

جلس أمام الموظف، استمع بتركيز، سأل بحذر، كرر السؤال نفسه مرارًا، يريد إجابةً مختلفة، أكثر يقينًا، أكثر أمانًا:

ـ يعني رح اخذها إيمت بالضبط؟

رفع رأسه عن الأوراق، نظر إليه بوجهٍ خالٍ من التعبير، أجاب بجملةٍ مقتضبة، لا تحمل وعودًا ولا تعاطفًا:

ـ في حال كان ملفك الأمني نظيفًا، تحصل عليها بعد خمس سنوات.

خمس سنوات، رقمٌ عادي بالنسبة لآخرين، أما بالنسبة لعصام فهي عمر كامل من الترقب، والحذر، ومحاولات أن يكون شخصًا لا يثير الانتباه، ولا يترك خلفه أثرًا قد يُعيد فتح ملفاتٍ قديمة.

خرجنا من المكتب، عرفتُ من نظراته أنّه يكرر الجملة في رأسه، يلوكها كما يلوك القلقُ روحَه. يراجع خطواته منذ أن قدِم إلى السويد، كلّ خطوةٍ سلكها محسوبة، مأطّرة بالقانون، يتأكد من أنّ كلّ شيءٍ نظيف، كلّ ورقةٍ سليمة، الماضي يُمكن محوه بملفٍ مرتب وسنواتٍ بلا زلات.

أشعر بقلقه يهمسُ له:

«هل ستبقى نظيفًا لخمسة أعوام أخرى؟»

لم ينسَ جُمان وسط كلّ هذا، يعرف أنّ استقرارها في الدراسة هو مفتاح اندماجها في حياة جديدة. في بحثهِ عن مدرسةٍ مناسبة استشار عبير وزوجها، اطلع على المدارس الثانوية القريبة من شقتنا، وقع الخيار على مدرسة تالا الثانوية (Täljegymnasiet)، مدرسة معروفة بمستواها الجيد، وتعدد جنسيات طلابها، ما يجعل انتقال جُمان إليها أكثر سلاسة.

اصطحبها في أول يوم، حرص على أن يكون معها، يُريها المبنى، يَطمَئِنُّ أنها بخير، وأنها لن تشعر بالضياع وسط الوجوه الجديدة. جُمان

متحمسة، رغم شعوري أنّها ما زالت تحملُ شيئًا من الحزن، وأشياء من الماضي، ربما تفتقد صديقاتها، بنات عبير، اللواتي تعلقن بها وتعلقت بهن، بات اللقاء شحيحًا، فالمسافة بين سودرتاليا ونورشوبينغ ليست بسيطة، وزياراتنا أصبحت شحيحة.

عصام لم يسمح لنفسه بالبقاء عاطلًا، قرر ألا يكون ممن ينتظرون المعونات أو يركنون للراحة، رجلٌ يجد في العمل كرامته، في مشقة التكسب جبينه يتفصّد حياة. شرع في البحث عن مطعم ليشتريه، يعيد لديه أمجاد الطهي وبطولاتها في المذاقات الشامية، فكرة المطعم الصغير كانت مكتملة في ذهنه، خاصة وأنه ماهرٌ في تحضير الأطباق الشامية التي يحبها الجميع، هو على يقين أنّه يمكن أن يخلق لنفسه مكانًا مميزًا في السويد، بين عشاق الطعام الشرقي والجاليات العربية، ليقدم لهم ما يذكرهم بدفء بيوتهم.

بدأ يسبرُ في الخيارات المتاحة. خطوة جديدة بعيدًا عن مغامرة كبيرة. العربة الصغيرة (Food Truck) الحل المثالي لتقليل التكاليف، يركز على أطباق شامية مشهورة، الفلافل والشاورما، المناقيش والكبة، والتبولة، لمسته ستكون مختلفة، مميزة. نكهة غير موجودة في المطاعم التجارية.

في أول الأمر استهدف الطلبات الخارجية (الديليفري) بالتعاون مع تطبيقات التوصيل لزيادة المبيعات والوصول إلى جمهور أكبر. هكذا شَكَلَ أحلامه، خطوة تلو الأخرى، ثُمّ قرر أن يكون صاحب مطعم، يحقق حلمه في أن يمتلك مطعمًا يطلق عليه اسم لؤلؤة الشام.

يتجول في شوارع سودرتاليا، يسأل، يتحرى، وجد مطعمًا معروضًا

للبيع في شارع بيرغا (Bergvägen)، شارع حيوي يتردد عليه الكثير من المهاجرين والسويديين، يمكن أن يبدأ من جديد دون خوف من الفشل.

المال لم يكن وفيرًا؛ لكنّه درس الأمر جيدًا، تحدث مع المالك القديم، تفاوض، حصر التكاليف، قررَ أن يخاطر، أن يُقدِم على أولى الخطوات نحو استقرار حقيقي. لم يكن كسب المال هدفه الوحيد، يحتاج إلى هذا المحل ليشعر بأنّه لم يعد لاجئًا ينتظر قرارًا، عصام رجلٌ يكسب قُوته بيديه، ليقف على قدميه من جديد.

انضمت جُمان إلى مدرستها الجديدة. بداية الفصل الدراسي، كلّ شيءٌ غريب، اللغة، الأسلوب، الوجوه، سرعان ما تأقلمت، وجدت أصدقاء جددا، بدأت تشعر بأنّ الحياة هنا يمكن أن تكون جميلة، رغم حنين قلبها إلى صديقاتها في نورشوبينغ.

أما أنا، فأراقب كلّ هذا، تغمرني الطمأنينة. عصام يعمل، جُمان تدرس، وأنا أعيش. لأول مرّة منذ سنوات، أعيشُ، لستُ خائفة، لا أخشى فقدان ما بين يديّ.

هذه البلاد، رغم غربتها، منحتني ما افتقدته طويلًا؛ الأمان.

***

كحة الموت

لم أكن أعلم بأنّ الرحلة القصيرة من السويد للبحرين لإنهاء بعض المعاملات المؤجلة ستتحول إلى غيابٍ طويل، إلى سنةٍ كاملة من الانتظار، من شوقٍ يكبر كلّ يوم ليصبح وجعًا لا يحتمل.

حليمة رتبت لي كلّ شيء، مواعيد المتابعة مع الهيئة العامة للتأمين الاجتماعي، مع البنوك، تذكرة طيران سريعة، مطمئنة إلى أنني سأعود سريعا، أسبوعان لا أكثر، أعود بعدها إلى عصام وجُمان، إلى بيتي، إلى دفءٍ انتزعته الحرب والمنافي وأعادته لي السويد أخيرًا.

الفراق.. لم يكن في الحسبان، الحياةُ ليست تلك الخطط التي نرسمها ونراجعها كلّ حين، الحياةُ مفاجآت تضربُ كالعواصف، تقتلع كلّ شيء من جذوره، تتركنا عالقين في الخواء.

بدأ الأمر بخبرٍ، عنوان في الأخبار عن فيروس ينتشر في العالم، لم أعره اهتمامًا، مشغولةٌ بإنهاء معاملاتي استعدادًا للعودة. فجأة تحولت الأخبار إلى واقعٍ مرعب. ألغيت الحجوزات،

أغلقت المطاراتُ.

العالمُ في حالة طوارئ.

وأنا... عالقةٌ، محاصرةٌ بقلقي، مشلولةٌ بعجزي.

شهرٌ، شهرٌ آخر، ثُمّ يمرُّ عامٌ كامل. حُبستُ بين البيت والمستشفى، لم يكن يوسف مستعدًا للعالم بعد، ولدَ في شهره السابع، نحيلٌ وضعيفٌ، بين الأجهزة والأسلاك، بين تعقيمٍ مستمر وخوفٍ لا يهدأ. عليّ أن أكون قوية، أواجه عالمًا أصبح أكثر جنونًا ووحشيّة. لم يعد هناك منطق، كلّ شيء أصبح مؤقتًا، هشًا، مُعرضًا للانهيار. الموتُ يتربصُ بكلّ الزوايا، يطرقُ الأبواب بلا استئذان، يحصدُ الأرواح بلا رحمة.

المستشفياتُ محطاتُ وداع، ليست للعلاج. يدخلها المرضى، قِلةٌ من يخرجون أحياء. في الداخل.

ممراتٌ باردةٌ، أصواتٌ خافتة، أطباءُ مرهَقون، الناسُ يختفون واحدًا تلو الآخر.

مقابرُ لا تشبع! ...

حفرٌ تُجهّز مسبقًا، وأرقامٌ تتصاعد، جنائزٌ مقتضبةٌ، مختصرةٌ.

ثم جاء الخبر... زوجة أبي في غيبوبة، ابنها بدر، أخي.. مصابٌ أيضًا، ليلى ابنة عمي في عمري، قالوا إنّها في العناية المركزة، سوسن معلمة كانت معي في المدرسة.. لا تتنفس، لستُ مستعدةً لسماعِ هذه الأسماء في سياقِ الموت؛ لكنّهم هناك، بين أسماءٍ تحيط بي، وبين أسماءٍ تلاشت أو على وشك.

لم نتمكن من رؤيتهم، الحجر الصحي لا يسمح بذلك، كُرونا لا تسمح لأحد بلحظات الوداع، تأخذُ الأحبة بلا فرصة أخيرة، أو عناق، وبلا كلمات تُقال وجهًا لوجه.

ثم رحلوا جميعًا، أخي الأقل قسوةً رحلَ بعد أقل من شهرٍ على رحيل أمه، وابنة عمي، وسوسن، وسعاد ابنة جارتنا آمنة وزوجها، رحل معهم العديد ممن نعرف، وممن لا نعرف. رحلوا كما رحل كثيرون، بلا تشييعٍ ولا مجلس عزاء. صارت مجالس التعزية عبارات رثاء في مجموعات الواتس آب، وبات الموت إشعارًا إلكترونيًا باردًا، يصل ويختفي في زحام الرسائل.

الأقرباء يرحلون، هذا جزءٌ من الحياة؛ لكن أن يرحلوا بهذه السرعة، رحيلاً جماعيًا. هو فقدٌ لا يُحتمل.

كُرونا أخذت الأرواح وأخذت شعور الأمان ممن تبقى، أخذت فكرة أن الغد يمكن أن يكون كما لا نتوقعه.

الناسُ يمشون في الشوارع بأعينٍ مرهقة، يلتفتون حولهم بحذر، الموتُ يختبئ خلف كلّ الزوايا، المقاهي فارغة، المطارات موصدة، المصافحات محرّمة، الوجوه مختبئة خلف الكمامات الطبية، والأعين ممتلئةٌ بالخوف، كلّ منا يعرف أنّه رقم مؤجل في قائمة الراحلين. هذا العام لم يكن عامًا عاديًّا... مقبرة مفتوحة، العالم كله... ينتظر دوره.

أشتاق إلى عصام وجُمان، إلى معانقةِ صوتيهما، لمسهما، المكالمات لا تروي. عصام لا يحب الحديث الطويل، أسمع صوته، مقتضبًا كعادته، يطمئنني بكلمات قليلة، لم يكن قريبًا بما يكفي ليهدئ روحي. جُمان... بعيدة أكثر، بالكاد ترد على مكالماتي، عندما تفعل، تكون مشغولة، بحصصها، بدروسها، أصبحتُ جزءًا هامشيًا من روتينها اليومي، بالأحرى ازدادت المسافة التي ظننت أن الغربة جسرتها بيننا.

***

منذ حملت قال لي: «لو بنت نسميها سولاف، ولو ولد نسميه يوسف»، يناديني أغلب المرات أم يوسف، وكأنه متيقنٌ من أنّه سيكون صبيًا.

يوسف جزءٌ من الحكاية قبل أن يُولد، مقدَّرٌ له أن يكونَ امتدادًا لما بيننا، بذرةً من رجلٍ سكنني حد النخاع. عصارة عشقي به، جميلٌ جدًا، استعار كلّ ما هو جميل مني ومن أبيه، مزيجٌ دافئٌ منّا، ورغم كثرة انشغالي به لم يكن يسدُّ ثلمة حنين أتحسسها كلّ ليلة.

حين فُتحت المطارات، لم أستطع السفر. حالة يوسف الصحيّة لا تسمح لي أن أعبر به المحطات.

ظللت عالقة، لا في البحرين ولا في السويد، بين المسافات والحيرة، بين شعور الأمومة والخوف من البعد والوحدة. قال عصام، بكلماتٍ مختصرة:

ـ خليكي بالبحرين هلأ، بكرا بتتحسن الأحوال، لا تخافي علينا. وضعنا منيح.

لكنّني أشعر، أنّ شيئًا ليس على ما يرام. أخاف.. خوفًا ممزوجًا بالفزع، خوفًا لم أختبره من قبل.

أخبرني أنّه مضطر لإجراء عملية جراحية في الحوض. الأمر بالنسبة إليه إجراءٌ طبيّ هين، شيءٌ روتينيّ لا يستحق القلق. أما بالنسبة إليّ فهو قلقٌ جديد يضاف إلى قائمة هواجسي الطويلة.

في هذا الظرف، وسط فوضى المستشفيات وضغط الجائحة، كيف يمكن ألّا أخاف؟

ـ انتظرني أرجع... خايفة عليك.

قلتها برجاءٍ، وكعادته، كان هادئًا، مطمئنًا، لا يريد أن يترك لخوفي أيّة مساحة، يقطع ارتباكي بثقة:

ـ لا تخافي. العملية سهلة إن شاء اللّٰه أسبوع وبرجع طبيعي. ما اشتقتي تشوفيني عم بمشي بلا ما أعرج؟

يريدني أن أصدق كلماته أكثر مما يصدقها هو نفسه؛ لكنني فعلًا اشتقت لمشيته. بداخلي افتتانٌ خفيٌّ، هوسٌ لم أعترف به حتى لنفسي. لطالما راقبته وهو يمشي، بخفةٍ ممتزجةٍ بالثقة، بحركةٍ سلسةٍ لا مبالية، كأنه لا يطأ الأرض، الهواء يدفعه للأمام بخفة. يرفع ساقه، يحررها من الجاذبية قبل أن يسندها بثقلٍ محسوب. استعلاءٌ ناعم، لا تصنّع فيه، لا ادعاء، حضور يخطف النظر دون أن يطلبه.

أتابعه كيف يطوي المسافات بيني وبينه بطريقةٍ تجعله أقرب دائمًا مما هو عليه. نعم، اشتقت لمشيته أمامي، نابضة، لا يخفت سحرها.

في إحدى مكالماتنا بالفيديو، رأيت جُمان معه في المستشفى، تلبس الكمامة، لصيقة بكتفه، تحتمي به كما لو أنّه وحده ما تبقى لها. أنظر لها بِوَلَهٍ، أحتاج أن أسمع صوتها:

ـ وحشتيني جُمان، اشتگتلج.

أنتظر أيّ رد، كلمة، إيماءة تدل على أنّها تشعر بشوقي، تكتفي برفع يدها بلا صوت، حركة عابرة لا تعني شيئًا، أغلق المكالمة قبل أن أتمكن من استيعاب خرسها.

***

صقيع.. وطفلٌ من زجاج

في الليالي الباردة، يختنق العالم بعزلته، يصبح أكثر جفاءً مما يُحتمل، حليمة معي، ترفضُ أن تتركني أواجه عزلتي وحدي. العالم خارجًا يعيش تباعده القسري، القوانين تمنعُ التجمعات؛ لكنّها لا تمنعها من أن تأتي إليّ، تخترق حواجز الخوف والمسافات كي تجلس معي، تمنحني دفء وجودها وسط برودة الأيام.

حين يشتدّ قلقي، تكون يدها على كتفي، صوتها يطمئنني، يحاول أن يبدد هواجسي. تسألني عن يوسف، تتابع كلّ التفاصيل الصغيرة، تشغلني بأحاديثها عن أشياء خفيفة، عابرة، أشياء لا تستدعي الخوف، تسحبني من أفكارٍ لجوجة. في وجودها، تصبح الوحدة أقل قسوة، والخوف أقل ضجيجًا.

خوفي يكبر ويوسف يكبر أيضًا، طفلٌ مختلف، اختلافٌ أعرفه جيدًا، ذكيٌ، شديد التركيز، بطريقةٍ غير معتادة. يلاحظ أمورًا لا ينتبه لها من هم في عمره الصغير.

يحملقُ في المروحة طويلًا، كأنها تأخذه إلى عالمٍ آخر، ينبهرُ بالإضاءة،

ينجذبُ لصوت أناشيد الرسوم المتحركة، لحركة اليدين، يبدو أنه يراها بطريقةٍ مختلفة عنا. بدأ يُصدر أصواتًا، ظننتها أولى كلماتِه.

ثم.. بدأت التصرفات تتكرر، تتكدس أمامي كأحجيةٍ ليست غريبة عني. شيءٌ ما في داخلي لم يصدق. أنا من درّستُ هذه الفئة أكثر من غيري، أعرفها جيدًا.

في البداية، لم أسمح لنفسي بأن أنطقها، أهربُ من الفكرة، أقنع نفسي بأنّه اختلاف بسيط؛ لكنني أعرف، لم أستطع أن أهرب من الحقيقة طويلًا.

حين عدتُ إلى السويد، أراقب عصام وهو يلعب معه بعد عودته من المطعم، يقضي معه وقتًا جميلًا، كأنهما يكتشفان بعضهما للمرة الأولى. سألني، بعفوية:

ـ لولو. إزا الولد عمره سنتين وعم ناديه وما عم بيطلع علينا، هالشي عادي؟

لم أجب. كرر السؤال:

ـ لولو؟

ـ لاا، مو عادي.

ـ شو بيعني؟

أقولها لنفسي لأول مرةٍ قبل أن أقولها له:

ـ يوسف عنده توحد.

لحظة سكون ثقيلة...

لحظة إدراك تشي بأن الحب وحده لا يكفي لحماية أبنائنا من أقدارهم.

رغم كلّ شيء، رغم التعب، ورغم أوقاتٍ أبكي فيها خُفيَةً لأنني مرهقةٌ وخائفةٌ، أبتسم وأنا أراه ينمو، بإيقاعه، بعالمٍ لا يشبه عوالمنا؛ لكنّه جميل بطريقته الخاصة.

شيئًا فشيئًا، بدأتُ أفهم يوسف، أراه بعينٍ مختلفة، هو روحٌ فريدة تحتاج إلى مساحة خاصة بها، لا طفلًا يحتاج إلى إصلاح.

عرفت أنّ حبّه مختلف...

لا يقول أحبكِ؛ لكنّه يضع رأسه على كتفي.

لا ينظر في عينيّ طويلًا؛ لكنّه يبتسم عندما يرى وجهي بعد غياب.

لا يركض إليّ عندما أناديه؛ لكنّه يبحث عني عندما يحتاج إلى الأمان.

أصبحتُ أمًّا لطفلٍ مختلف، بطريقة لم أتخيلها؛ لكنّه علّمني حبًا لم أكن أعرفه من قبل. لم أعد أبكي وأسأل: لماذا يوسف؟ صرتُ أقول: الحمد للّه أنّه يوسف...إنه طريقتي لفهم العالم بشكلٍ أعمق.

***

جُمان، صارت تُشبه ظلًّا يمر بي سريعًا، دون أن يمنحني فرصة الإمساك به، أو يترك لي مجالًا لفهمه. قريبة من عصام، حدّ الالتصاق. تُحادثه حول كل شيء، تمازحه، تطلب منه ما تريد، أنا بالنسبة لها واجبٌ منزليٌ يثقلها، علاقةٌ تحاول الإفلات منها.

حين تطلب منه أن يصطحبها للخروج، لشراء شيء تحتاجه، ما إن أنطق:

ـ نطروني..بروح وياكم.

يتغير كلّ شيء فجأة، تتراجع عن رغبتها بالخروج.

ـ تزكرت عندي واجب منزلي لازم أخلصه.

تملؤها السعادة حين يشتري لها عصام ملابس أو هدايا خاصة لها وحدها، ثم تتبدد السعادة إلى ضيقٍ صامت لأنه اشترى لنا ملابس متشابهة، تتجاهلها، تتركها في الخزانة كأنها غير موجودة. تفكر جديًا في التخلص منها، لأنها، تُشبهني.

كلما حاولت الاقتراب اصطدمت بجدار لا مرئي. أعذارٌ أكبر من الموقف، تختبئ خلف حججٌ لا تُقنع طفلًا صغيرًا. تتجنبني، بشكلٍ ممنهج، بطريقةٍ تشبه شخصًا يخشى المواجهة، أو يهرب من شيءٍ لا يريد أن يشعر به.

تحب يوسف وتلعب معه، هو فقط المساحة الوحيدة التي تجمعنا دون أن تشعر بأنّها معي. تتجنب الجلوس إلى جانبي، بيني وبينها مسافةٌ خفيّة، مسافةٌ لا تُقاس بالأمتار، جمودٌ عاطفيّ يمتدّ بلا نهاية.

ـ عصام... اشفيها جُمان؟ ليش كلش بعيدة عني؟

أقولها بصوتٍ ينكسر كلما ابتعدت أكثر، كلما وجدتُ نفسي غريبةً عنها، أنا أول من احتضنها، أول من غنّى لها، أول من تعرّف نبضها قبل أن ترى هذا العالم.

لا يتوتر من سؤالي، يحتويني بصبرٍ طويل، يضمني، يهدئني بكلماتٍ تأخذ من الفلسفة أكثر مما تأخذ من العاطفة، ربما يرى الأمور بوضوحٍ أكبر مني، كأنه سبقني في فهم الأمومة.

ـ لولو... المراهقة شغلة معقدة، مو شوية تمرد. أحيانا بصير بالصمت أو بالمسافة مشان الواحد يعملو هوية مستقلة.. جُمان عم تحاول تكتشف حالها هلأ.. عم تبعد عنك لأنها بتحبك كتيير، لأنو هي بتحس أنو انتي أكتر وحدة بتعرفيها مشان هيك بدها مسافة خاصة.. بس أكيد حضنك راح يضل مفتوح إلها لأنو انتي بتضلي الأمان اللي فيها تتمرد عليه بدون خوف من خسارته.

أستمع إليه، كلماته تهدئني قليلًا، أفهم جُمان بعقلي، أما قلبي فيعجز عن فهم هذا الجفاء، وكيف لابنتي أن تختار البعد عني، وأن تضع هذه المسافة بيننا، أن تُفضل السكوت على أن تبوح لي بما يدور في خاطرها.

ـ ما تشتاگلي؟ ما تحس إني موجوعة؟

يهمس لي بصوتٍ دافئ:

ـ لولو، الأمومة مو بس حنان واحتواء، أحيانًا لازم تتركي مساحة للبعد، لأنو إزا قرّتبي بالغصب، البعد رح يكبر.

أهزُّ رأسي، كأنني فهمت.. قلبي لم يفهم، لم يقتنع.

ليس سهلًا أن أكون أمًّا دون القرب، أنتظر.. دون أن أعرف كم ستطول هذه المسافة، متى تعود ابنتي، متى تتركني أحبها دون حواجز؟

***

الشهرةُ لا تأتي دائمًا لمن يسعى إليها، أحيانًا هي من تنتقي صاحبها، تتسلل إلى حياة أحدهم فجأة، ليس لأنه أراد الأضواء؛ ربما لأنه فعل شيئًا لا يمكن للعالم أن يتجاهله ببساطة. وبعض الأفعال لا تحتاج إلى تخطيط،

هي تنبثق من غريزةٍ عميقة، وفطرة إنسانيةٍ لا تقف لتفكر، تتحرك قبل أن تستوعب الخطر.

عصام تصدّر الصحف والمواقع الإلكترونية في السويد، بين ليلةٍ وضحاها، لا لشيء إلا أنّه حين وقف الجميع متسمرين في أماكنهم، فعل الشيء الوحيد الذي ينبغي فعله... قَفَزَ.

يومها، كنّا في نزهةٍ بحريةٍ في بحر البلطيق، يوسف يعبث برمل الشاطئ، عصام وجُمان غارقان في لعبة الشطرنج.

النهرُ أمامنا، ساكنٌ كمرآة، تحته تيارٌ جارف، بينما الهواء يلسعُ وجوهنا ببرودتهِ القاسية. اخترق السكونَ صرخةٌ حادة، امرأة تلوّح بذعرٍ نحو الماء، وهناك، طفلٌ صغيرٌ سقط في النهرِ المتجمد. وفي حين تحنط الجميع من أثر الصدمة، كان عصام يقفز إلى النهر دون تردد.

صرختُ باسمه، اختفى تحت السطح. لحظات، خرج يسبح بقوة، يقاتل تيارًا يخدر الأطراف. وصل إلى الطفل، رفعه فوق الماء، بينما ظل جسده يغرق في عمق الجليد القاتل. أخيرًا، مدّ له أحد الرجال عصا طويلة، بآخر ما تبقى له من قوة، دفع الطفل نحو الأيدي الممدودة حتى يتشبثَ بها، وسُحب إلى اليابسة. ثم خرج عصام بجلده الشاحب عيناه نصف مغمضتين، وقع على الأرض. تجمّع الناس، أحدهم غطّاه بمعطفٍ، والآخرون صفقوا.

في اليوم التالي، انتشر المشهد في حساباتٍ عدة، كتبت عنه الصحف:

«لاجئ يخاطر بحياته لإنقاذ طفل سويدي بينما الجميع وقف بلا حراك».

يومها طرقت جارتُنا اليهودية العجوز بابَنا برفقة ابنتها إيستر، لتشكراه.

امتنانها واضحٌ في عينيها، بينما ابنتها، طلبت بحماسِ طفلة صورةً معه. أرادت أن تحتفظ بلحظةٍ توثقها، تضعها في حسابها، تفخر بأنّها وقفت إلى جوار الرجل الذي لم يتردد في القفز حين تشبث الجميع بدفئهم.

عناوين كثيرة حملت اسمه، مقالات تناولت قصته على صفحات الجرائد وبرامج التليفزيون. تصدر محركات البحث، يثير الرأي العام، يختفي ليعود أقوى، أشدّ غموضًا، أشدّ تضادا.

هو ذا عصام، حبيب طفولتي اليوم صار خبرًا يُنشَر، صورة تُعاد، رجلٌ في قلب العاصفة، البعض يراه بطلًا، البعض يراه متهورًا، ولا أحد يراه عاديًا.

يعيش دائما بين الظلّ والضوء، بين الحقيقة والأسطورة.

لكنه آنذاك لم يعد لي، لم يعد حتى ليغضبني أو ليجرحني، صار ملكًا لحكاياتٍ تحاك عنه، لقصصٍ تُروى بلسان غيري، لم يعد عصام الذي أعرفه، صار عصام الذي يعرفه العالم.

***

الحياة بعد اكتشاف حالة يوسف لم تعد كما كانت، عبرتُ عتبةً إلى عالمٍ جديد، عالمٍ ظننت أنني أعرفه، وأنّ خبرتي فيه كافية.. كنتُ مخطئة.. أن تكوني معلمةً لطفلٍ توحدي ليس كأن تكوني أمًّا له.

درستُ عن التوحد، درّستُ أطفالًا يعانونه، أعرف التحديات، الأساليب، المناهج والخطط العلاجية، المصطلحات العلمية؛ لكن أن يكون التوحد واقعًا يسري في دم ابنك، في كلّ تفصيلة من يومه، في نظراته، في صمته وحركاته، فهذا شيءٌ مختلف تمامًا.

يوسف لم يكن حالة خاصة أتعامل معها، أو طالبًا في فصلي، إنه قطعةٌ من روحي، حلمٌ كبر بين يديّ. عليّ أن أستوعبه، أقبله كما هو، لا كما تخيلت أطفالي يومًا، أو كما قرأت في كتب مناهج التربية.

منذ أن أصبح التشخيصُ حقيقةً لا يمكن إنكارها، دخلتُ مرحلةً جديدة.. مرحلة الاستيعاب، والبحث واتخاذ القرارات.

بدأت أبحث عن مراكزَ مؤهلة في السويد، تعتني بالأطفال المصابين باضطراب التوحد، تساعدهم على تطوير مهاراتهم وتواصلهم. كنتُ أقرأ، أستفسر، أراسل، أتحدث مع أمهاتٍ سبقنني في هذا الطريق.

السويد دولة تهتم بالاحتياجات الخاصة، هناك الكثير من البرامج لكني أبحث عن المركز المناسب ليوسف، مركز لا يعامله على أنّه حالة إحصائية؛ وإنما يعامله بصفته طفلًا يحتاج إلى فهمٍ عميق ورعاية خاصة.

زرتُ عدة مراكز، في ستوكهولوم وخارجها، أمضي أيامًا أبحث وأقارن وأزن الخيارات، متأكدة من أمرٍ واحد.. أنّ يوسف يستحق الأفضل، سأكون سنده في هذه الرحلة، مهما أستلزم تأهيله من وقتٍ وكلفة.

شدّني أحد المراكز في ضاحية سودرتاليا، كوادره مؤهلة، جلساته فردية، برامج مكثفة تعتمد على العلاج السلوكي التطبيقي. أعجبني، لكنّه، ككلّ شيء في هذه البلاد، مزدحم.

بصوت الأم التي لا تكلّ، ألححت. وفي النهاية، قُبل يوسف. بدأت معه جلسات (ABA) علاج سلوكي مكثف لتطوير مهاراته الاجتماعية والتواصلية، إلى جانب جلسات النطق، فهو لا يستجيب للنداء بعد، وكان علينا البدء من الصوت، من اسمه، من عتبة الانتباه الأولى. العلاج الحسي

أصبح جزءًا من يومه، تعلّم كيف يواجه الأصوات التي تُربكه، كيف لا ينكمش أمام الضوء، كيف يتفاعل بدلا من أن ينسحب.

لكنه يرفض الذهاب، يبكي، يلتصق بي، يخاف أتركه في حيزٍ لا يعرفه. سجلته في جلسات العلاج الفردية، كنتُ معه في كلّ جلسةٍ، أجلس بجانبه، أمسك يده حين يحتاجني، أراقبه كيف يحاول، كيف يتعلم ببطء، كيف يبني عالمه بين قواعد لا يفهمها. أعرف أنّ هذه هي الطريقة الوحيدة لمساعدته على الاندماج، بطريقته، دون أن يُجبَر على أن يكون مثل الآخرين.

لم أفارقه أبدًا، كنتُ ظلَّه، عينه حين لا يستطيع تفسير ما حوله، كنتُ صوتَه حين يعجز عن التعبير. ليتهيأ لصفوف الدمج الجماعية، ليكون مستعدًا حين يأتي يومٌ يقف فيه وحده دون أن يخاف.

لكن الشيء الذي لم أتوقعه... أن أُتهم بالتقصير، أنّ محاولتي لحمايته تُعدُّ خطأ، وأن وجودي بجانبه لا يُنظَر إليه على أنه دعم. كنتُ أقيّده، أحرمه من فرصة الاندماج بدلًا من أن أساعده. لم يُرَ خوفي عليه، لم أُسأَل عن محاولاتي، لم يُحسب عدد الليالي التي قضيتها أفكر في أفضل طريقةٍ لجعله أقوى، سُجِّلَت ملاحظة واحدة حصرًا:

«الأم تعاني من تعلقٍ مفرط وتُعيق استقلال الطفل».

هكذا، تحولتُ من أمٍّ تقاتل من أجل طفلها... إلى متهمة.

خوفي عليه يصبح سلاحًا ضدي.. مبررًا لسحبه من حضني.

***

شتاء السويد 2022، العالم يدخل في سباتٍ لا نهاية له، ليس بردًا يلفّ

الجدران، لا ثلوجُ تُغطي الأرصفة، هو عزلةٌ طويلة، تمتدّ إلى بقايا روحي. الليل يزحف باكرًا، الخامسة مساءً تُشبه منتصف الليل، مصابيح الشوارع البرتقالية تقاوم صمتًا ثقيلًا، داخل البيوت دفء بارد وسط حصارٍ طويل. الشتاء هنا يُفرغ الأشياء من ألوانها، والأرواح من وهجها.

وقلبي؟ يعيش شتاءه الخاص.

أمام المرآة، أبحث عني، وجهٌ مألوف حدّ الغربة، بشرةٌ شامية، خجلٌ نائم، وهجٌ لم يخمد، قوامٌ نجا من أثر الولادات، وشعرٌ كستنائي ينسدل على كتفي كحنين. شامة صغيرة تعلو شفتي، على الحدود بين الإثارة والغرابة. جزءٌ من هويتي، اعتقدتُ في صغري أنّها كائنٌ غريب عني، لم أكن استلطفه، مع مرور الوقت، أدركت أنها تشبهني أكثر من أي شيء آخر. شفتاي ليستا لافتتين كشفتَيْ جمان. جُمان التي ورثت شفتيّ، وأضافت لهما امتلاء الحياة.

أسأل نفسي... منذ متى وأنا على الهامش؟

الحياة تمضي، وأنا ألوّح من الرصيف، ولا أحد يراني.

عصام غارقٌ في مطعمه، الزبائن يلتهمون حضوره، يصنع لنفسه توازنًا وسط الانشغالات العديدة، صارت الحركة نجاته، وجدوله مزدحم على الدوام. جُمان تشاركه الطرقات، المدرسة، السوق، الفرح الصغير، يعود منهكًا، لكنه راضٍ، من التعب يستمدّ يقينه بأنه ما زال هنا، وأنّ عليه أن يكون لأجل شيءٍ أكبر، حتى صار، أحد مشاهير السويد.

بعد حادثة إنقاذ الطفل، فعّل نشاطات حساباته على إنستغرام وتويتر ويوتيوب، بدأ يتحدث، يعرض، يناقش، يُجادل.

لم يترك موضوعًا إلّا طرحه، دون خطوط حمراء، لم يخشَ أن يُسمع صوته وإن تفرد في آرائه. في كلّ فيديو، في كلّ تغريدة، يمدّ يدهُ إلى المجتمع السويدي، ليس كطالب لجوء؛ بل كندٍّ، كواحد منّهم، أو على الأقل... كرجلٍ قرر أن يصنع لنفسه شأنًا.

وأنا أفقد توازني. ولا أسقط، لأني لا أملك رفاهية السقوط. أشدّ أنواع الوحدة، أن تجد نفسك غريبًا وسط من يملكون روحك. في بيتٍ بارد، لا روح فيه، لا دفء يملأ زواياه. جدرانٌ صامتة، مسافاتٌ صارت تفصلني عن العالم، وعن نفسي، وعن جُمان.

أراها، لكن لا أصل إليها. كأنّها تعيش في بيتٍ آخر، في عالمٍ لا يفتح لي بابه. أنا بحاجةٍ إليها، كأمّ، كصديقة، كروحٍ تعيد لي جزءًا مني، لكنها ليست حاضرة. إن جلستُ بجوارها، رفعت الهاتف أمام وجهها لتوهمني بانشغالها. إن حاولتُ الإمساك بطرف خيط للحديث معها.. قطعته بكلماتٍ مقتضبة. أفكر أحيانًا، يوم كانت طفلةً صغيرة، تجلس قربي، تحكي لي كلّ شيء، نتحدث بلا انقطاع.. كيف تحولنا إلى عالمين متباعدين؟

يوسف، ربما كان يدًا تنتشلني من حزني، يحاصرني معه وحده، في عالمٍ مغلق. لم أعد امرأةً لها حياة، أمٌّ تعيش في متاهةِ طفلها، تراقب إيقاع أنفاسه، تفهم صراخه وسكوته، تترجم حركاته.

أكمل عامه الثالث، عامان في عتمة كُرونا، عزلةٌ لم تكن خيارًا، كانت قدرًا مفروضًا، حبسنا خلف الأبواب، عَزَلته عن عالمٍ يحتاج أن يتعرف عليه بخطواته الخاصة. ثُمّ عامٌ ثالث يكشف لي حجم الفجوة بينه وبين الأطفال الآخرين، حجم الأعراض التوحدية التي باتت واضحةً، شديدة، تزداد كلما حاولتُ أن أفتح له نافذةً نحو الخارج.

محاصرة معه وبه. عالمي الوحيد، دائرةٌ لا أستطيع الخروج منها، لا أثق بأحدٍ غيري يلازمه، وحدي أعرف كيف أفهمه، كيف أستوعب خوفه، وأهدئ عواصفه الصغيرة قبل أن تتحول إلى صراخ لا يمكن احتواؤه.

النوم معركة يخوضها أكثر مما هو حاجة طبيعية. ينام بلا نظام، يرفض النوم عندما يحتاج جسده للراحة. حين ينام، توقظه الهفوة قبل الصوت، والارتجافة قبل الخطوة.

ليالٍ طويلة وأنا أراقبه، أنتظر أن ينام لأسرق ساعة راحة؛ لكنّه لا ينام إلّا بعد أن ينهكني تمامًا. يحدق في الضوء، في دوران الغسالة، رفرفة يديه عندما يلوّح بها في الهواء، يرى شيئًا نحن لا نراه. يركض فجأة بلا سبب، يتوقف فجأة بلا سبب، يضحك وحده أحيانًا، ويبكي بلا مقدماتٍ أحيانًا أخرى. يصرخ إذا حاولتُ أن أغيّر روتينه، وإذا حدث شيء غير متوقع، يدخل في حالة من التوتر، ونوبة بكاء تجعله لا يهدأ لساعات.

لا يأكل كما يأكل الأطفال، يرفض الطعام، في داخله حاجزٌ يمنعه من التذوق. الأطعمة ذات الملمس الجديد تزعجه، يفضل أصنافًا محددة، يكررها كلّ يوم بلا ملل، إن حاولتُ تغيير شيء بسيط، يرفض أن يأكل كليًا.

وحدي في هذه الرحلة، وحدي تمامًا.

في وسط هذه الدوامة جاء خبر حملي مباغتًا.. تبعثرت الأسئلة في داخلي. أمٌ جديدة، بالكاد أستطيع أن أكون أمًا ليوسف!

كيف أقسّم نفسي بين يوسف، من يحتاج إليّ بطريقة لا يتخيلها أحد، وبين من سيولد ويحتاجني بشكلٍ آخر؟

في الشهور الأولى من حملي بكريم، بدلًا من أن أشعر بسعادة، شعرتُ بالضيق والقلق، بخوف من أن ينهار كلّ شيء حولي.

خائفة... خائفة من أن أنسى نفسي تمامًا وسط هذا الزحام. خائفة من أن ينتهي بي الأمر إلى فشلٍ وانكسار. أحلمُ بحياةٍ سعيدة، عائلة متماسكة، أصبحت أمًّا تجاهد للبقاء واقفة، بينما كلّ شيءٍ يدعوها للسقوط. أحتاجُ لِأَنْ يشعر بي أحد، أن يرى كم أغرق. أتكلم مع عصام، يضمني، يهدئني؛ لكنّه يملك تفسيرًا فلسفيًا لكلّ شيء، بدلًا من أن يمنحني حلولاً واقعية أحتاجها. هذه الفلسفة لا تريحني:

ـ لولو، كلّ مرحلة إلها ضريبتها، كلّ حب بيجي معو تعب. يوسف مو سهل، وإنتي مو متل أي أم، أنتي أقوى مما تتخيلي. جُمان مو بعيدة عنك.. بس هيه هلأ عم تمر بمرحلة بدها تحس إنها مستقلة. وكريم جاي ع الطريق ليقولك إن الحياة دايمًا تعطيكي سبب جديد لحتى تستمري.

أصمت، لا أريد كلامًا فلسفيًا عن مراحلَ أمضيتُ في دراستها أربع سنوات من عمري، أريد أن يشعر بي، أن يفهم كم أنا منهكة، وحيدة، متعبة. لكنني أعرف...هذا الشتاء، ليس حولي، هو داخلي أيضًا.

وأنا أريد أن أصدق أن الربيع سيأتي يومًا في حياتي، في علاقتي بجُمان، في يوسف، في قلبٍ انتظر ربيعًا.. صار خريفًا.

***

هاجسٌ يطرق القلب

الشتاءُ هنا طويل.

الليلُ ثقيل، الوحدةُ كالخنجرٌ في الصدر.

أحمل طفلًا في أحشائي، أكافح مع طفلٍ آخر. لم أعد أتحدث كثيرًا، لم أعد أشتكي، عالقةٌ بين أمومةٍ تبتلعني، ووحدةٍ تخنقني.

في أيامٍ كثيرة، أجرّ عربة يوسف، أتمشى بلا هدف، شوارعُ مغسولة بالمطر، ناسٌ يختبئون في مقاهٍ دافئة. وأنا، أبحث عن نفسي بين الأرصفة.

مررتُ صدفةً بشارع بيرغا، هنا مطعم «لؤلؤة الشام»، مكانٌ يأخذ من عصام كلّ طاقته، كلّ اهتمامه. وقفتُ للحظة أمام الواجهة الزجاجية الكبيرة، لمحتُ الداخل. المكان أنيقٌ بطريقةٍ تشبهه، مطعم راقٍ بألوان دافئة وأثاث عصري. المقاعد الجلدية السوداء تتناغم مع الأضواء الخافتة التي تنعكس على المرايا الضخمة.

ثم.. رأيته.

يقف هناك، عند صندوق المحاسبة، زبونة فاتنة أمامه، يناولها الفاتورة

بابتسامة، يضحك معها، يميل برأسه قليلًا كما يفعل حين ينسى العالم. هي تغادر، وهو يلوّح لها.

هناك إيستر!!

أبتلع شيئًا مرًّا، لا يُقال.

شيء يشبه الغيرة؛ لكنّه أعمق، أكثر إيلاما.

إيستر! جارتنا اليهودية، تعمل معه. تلبس زيا أنيقا، تسير وتستلم طلبات الزبائن، تتنقل بين الطاولات بثقة، وتضحك لعصام كأنها تعرفه أكثر مني. تشير بإصبعها إلى شيءٍ على قميصه، تبتعد، وفي مشيتها انتماء لهذا العالم الذي بناه عصام بيديه ويحملُ اسمي.

لم يخبرني.

لم يذكر لي يومًا أنّها تعمل معه.

لم يقل كلمة واحدة عن وجودها في حياته اليومية. لماذا؟!

أقف تحت المطر دون مظلّة، برد السويد الذي اعتدتُ عليه اخترقني لأول مرة. لم أكن امرأةً تُحاسب زوجها على توافه الأمور، لم أعترض على عمله مع النساء، ما آلمني أنّه لم يخبرني.

لماذا لم يخبرني؟ نسي؟ تعمد ذلك؟ الأمرُ غير مهم بالنسبة إليه؟ أم أنّه يعلم أنّني سأشعر بشيءٍ لا يريد أن أعيشه؟

تراجعتُ للخلف، ابتعدتُ عن الواجهة، خشيّة أن يلمحني، فيقرأ ملامحي، يرى شرخًا يتسعُ بداخلي.

هذه المرة ليست الوحيدة التي لسعتني فيها الغيرة دون أن أبوح. هي تتسلل إليّ في مشاهد كثيرة، تفاصيل صغيرة، أراها بطريقة موجعة!

حين أتصل به ولا يجيب، يعود لي برسالة: «أنا مشغول هلأ.. برجع بحاكيكي بعد شوي»، أتخيله منهمكًا في الحديث والضحك بين الزبائن، بينما هاتفي آخر ما فكر به، حين أراه في السوق يتحدث مع إحدى فانزاته، التقاها مصادفة، تبتسم له، تمدح وصفات مطبخه، تتحدث عنها كأنها مشروعًا مشتركًا بينهما، بينما أنا أقف جانبًا، مجرد ظلّ، حين أتابع حسابه وأرى التعليقات المتغزلة بوسامته، يعتريني فخرٌ بزوجي، وفي الوقت نفسه، غيرةٍ كامنة، لا تخرج. حين نكون في المنزل، أتحرك بين الغرف، أطبخ، أرتب، أجهز الغسيل، هو جالسٌ، هاتفه في يده، يضحك على رسالة.. رسالة ممن؟

يدخل البيت مرهقًا، بالكاد ينظر إليّ، يرمي مفاتيحه: «يوم طويل بالمطعم»، ينام دون أن يسألني كيف يومي... لم يعد يرى تعبي، انشغاله جعلني خلف كلّ الأولويات.

ـ لولو، إنتي مو جذي!

أحاول أن أقنع نفسي بألّا أشعر بهذا الشيء القاتل؛ لكني فعلت... أصبحتُ امرأةً تغار، إنها غيرةٌ لا تشبهني، ليست غيرة طفولية، ولا غيرة امتلاك، هي غيرة وِحدة.

أغارُ لأنني وحيدة، مركونة، شعور بأنني لم أعد أرى انعكاسي في عينيه كما السابق. في كلّ مرّة أقرر أن أواجهه... أسأله، أتراجع في آخر لحظة.

لأنني أخاف...

أخشى أن أكون مخطئة،

الأدهى أن أكون محقة،

أخاف من إجابةٍ تَفتح جرحًا لا أستطيع إغلاقه.

لم أخبره.

لم أذكر له أنني مررتُ بالمطعم، ورأيتُ إيستر تعمل معه، لم أسأله لماذا لم يخبرني؟ أنتظر، أُمَنِّي نفسي بأن يأتي يومٌ يتحدث فيه عنها دون أن أسأله، أن يذكرها كأي تفصيل يوميّ عابر، ألا تكون شيئًا مخفيًا في زوايا حديثه.

الأيامُ مرت، لم يذكرها. كأنني لم أرَ شيئًا.

حاولتُ أكثر من مرّة أن أقترب من الموضوع، أُلمّح، أضع كلمات في مساحاتٍ تجعله يتحدث عنها، يفوّت الفرصة بذكاء، أو ربما بلا قصد، يضع بيني وبين تلك الحقيقة ستارًا شفافًا لا يمكنني اختراقه.

ـ كيف الشغل بالمطعم اليوم؟

ـ الحمد لله، عجقة بس الشغل ماشي، ما عم نلحق زباين.

ـ طيب فيه معك موظفين؟ تساعدك في الإدارة؟

ـ إدارة شو، لولو؟ أنا يالي بدير كلشي.

لكنّه ليس وحده. أنا رأيتُ بعيني.

مرّة أخرى، جربتُ طريقًا آخر، أكثر وضوحًا:

ـ عصام، اليوم تلاگيت بجارتنا إيستر مع أمها في السوبر ماركت، شكلها مرتبة. كشخة حدها.

ـ أوه، إيستر؟ شفتيها؟ بنت أكابر، أهلها معبايين.

ـ إي صح، بتشتغل شيء؟ شغلها بعيد عن بيتها؟

ـ يهود السويد في ستوكهولم، كتير منهم عندهم أعمالهم الخاصة.

نقطة. انتهى الحديث.

لا يذكر أنها تعمل معه، هذا الجزء تحديدًا محذوف من قصته، لا يُقال. لم يكن هذا الشيء الوحيد ما بقي عالقًا في الظل.

في إحدى الليالي، سمعتُ صوته يتحدث بصوتٍ منخفض، بنبرةٍ ليست مألوفة لي، شخصٌ آخر، ليس زوجًا أراه كلّ يوم، رأيتُ رجلًا يعيشُ تفاصيل لا أفهمها.

اقتربتُ، سمعتُه:

ـ كلشي جاهز، بس ناقص آخر خطوة. إذا ضبطناها صح، نبلغ عنهم علطول.

توقفتُ للحظة، دخلتُ على جزء من حياة عصام لم أُدعَ إليه، لم أعرف أنّه موجود.

ـ أكيد، أكيد، أبو عمر لا تستعجل، الأمور حساسة، بدها ترتيب.

ثم جاءت الضحكة، ضحكة صديق يعرف الآخر حتى أعماقه، ضحكة لا يشاركها إلّا مع من اقتسم معه الألم والخوف والموت.

أمجد أبو عمر؟

لماذا يبدو بينهما مشروع؟ علاقة؟ سرّ لا أعرفه؟

اقتربتُ أكثر، كلمات مبهمة، غير مترابطة، أحاول أن ألتقط أي خيط يساعدني على فك اللغز، لا أجد.

تسمرتُ، لم يكن حديثًا عن أمور الحياة العادية، ولا عن العمل، ولا عن شيء مما أعرفه في عالم عصام الجديد. بل حديثًا عن شيءٍ لم يُخبرني عنه أبدًا. أدركتُ أن هناك جزءًا كبيرًا من عصام لا يزال يعيش هناك، في أقبية الموصل، قطعةٌ من ذاكرته لم أكن جزءًا منها، ويبدو أنّه لا يريدني أن أقترب منها.

أريد أن أسأله.. لماذا لم تخبرني أنّكما لا تزالان على تواصل؟ ماذا تعني الخطوة التي تتحدث عنها؟ ما الذي تخفيه عني؟

لم أفعل. جبنت عن المواجهة؛ لكنني بدأتُ أرى أنّ هناك أبوابًا في حياة عصام لم تُفتح لي قط.

***

كنتُ أُقَلِّبُ هاتفي، وانتبهت للأيقونة الصغيرة بجانب حساب جُمان، قفلٌ صغيرٌ يعني أنني محظورة من حسابها، لم يكن الأمر مفاجئًا؛ لكنّه كان يوجع بطريقةٍ غير متوقعة.

ـ شو بيكي، لولو؟

ـ جُمان... حاذفتني من حسابها، ما تبيني أشوف قصصها ويومياتها.

ـ لك دخيل هل العيون.. ولك شو هالحساسية؟ أكيد ما بدها يغلى قلبك عليها وينشغل بالك بلي عم تكتبو.

ـ بس آنا أمها، لازم أكون گريبة، مو لأني أبي أراقبها، ترى آنا صرت ما أشوفها.. أبي أشوف تفاصيل يومها. أبي أشوفها حتى من ورا الشاشة. ليش تبعدني، صارت مو بحاجتي.. صارت تكرهني؟

ـ لك يا لولو مو هيك، الأولاد بدهم يحاولو يبعدو شوي، هي يمكن حاسة انو في شغلات ما بدها ياكي تدري فيهم مشان ما يتشغل بالك! بتوقع انو بهل الطريقة هيه عم تحاول تحميكي.

ـ ما بدي منها حماية، بدي بس حسّ إني قريبة، إني لسا بقدر شوفها بدون ما تضطر تبعدني عن عالمها.

ـ أييه احكي معها بس لا تعاتبيها، قوليلها قديش انتي بتحبيها وقديش بتتمني إنها تكون قريبة عليكي، لازم تحسيسها انو انتي متل رفيقتها يلي بتثق فيها ومانك رقيب عليها.

حاولت أقنع عقلي بأنّ العلاقة بين الأم وابنتها ليست خيطًا يُقطع، هي نهرٌ يمتدُ، يضيق مجراه أحيانًا، أحيانًا يتفرّع بعيدًا؛ لكنه لا يتوقف عن الجريان. المسافات التي تبدو كحواجز ليست دائمًا أبوابًا مغلقة، هي أسلوبٌ خفيٌّ للحفاظ على الحب دون أن يَثقُل، دون أن يُصبح حِملًا يخنق الحريّة... دون أنْ يتحوّل إلى وشاحٍ جميل معقود أكثر من اللازم على رقابنا... خانق.

أنا أكره المسافة، وجُمان تكره أن يحدّ لها ظلٌّ، فلا يُترك ليستطيل وينتشر على سجيته. بين هذا وذاك، تحدث محاولات الاختباء، محاولات التمرد، هي في النهاية ليست رفضًا، هي حاجةٌ لإثبات الذات بعيدًا عن أعين تعرف كلّ شيء.

الحب الحقيقي لا يحتاج إلى شاشات، لا يُقاس بعدد قصصٍ تُعرَض أو تُخفى؛ هو يقاس بمقدار ما يظل منقوشًا في الروح، ثابتًا كنبضٍ لا يتوقف، مهما ابتعد الجسد.

***

ارتداد الصفعة

انتهت العزلة،

الحياة تعود إلى طبيعتها، المقاهي تستعيد رونقها، تمتلئ من جديد، والموت الذي خيّم على العالم جراء الوباء أصبح ذكرى بعيدة، كأنّ شيئًا لم يكن.

هنا في السويد، شهر أغسطس مزيج من دفء الشمس ونسائم الخريف الأولى، تمتد ساعات النهار الطويلة، وتتوهج الطبيعة بألوانها الخضراء قبل أن تبدأ بالانحسار. في المساء، يخف وهج الصيف، وتلامس البرودة الهواء تذكيرًا بأنّ الشتاء يقترب.

أربعة أعوام مرت على ذكرى زواجنا، أُمَنِّي نفسي بأن تكون ليلةً مختلفة، ليلةً لي وله، كما كانت ليالي البدايات، مشواره المسائي المعتاد مع جُمان، حاضرٌ ككل ليلة. لم أكن أريد البقاء وحدي، بحاجة للخروج، لتغيير جو، تمسكتُ بالخروج معهما:

ـ يوسف نايم، الكاميرا معي عَ تلفوني، رح اطلع غيّر جو معكن.

جُمان بلا صوت، التفتت لجهةٍ مقابِلة، لم تسمعني.. لم تشأ أن

تسمعني، عصام رحّب بالفكرة. دخلنا المقهى، دفءُ المكان يتسلل إلينا، يتوغل في الأجساد بهدوء. أضواء خافتة، تمتزجُ بالليل المعتم خلف الزجاج، موسيقى في الخلفية، همساتٌ ناعسة، كلّ شيءٍ يبدو لطيفًا.

يجلس أمامي، مازال يأسرني بملامحه، أحفظها أكثر مما أحفظُ ملامحي، هناك شيءٌ آخر، شيءٌ يجعلني متيمةً به حدّ الجنون.

طقوسه حين يدخن.

يخرج علبة السجائر من جيبه، بحركةٍ بطيئة، مدروسة، طقسٌ مقدس لا يريد أن يتعجل فيه. يسحب واحدة، يغلق العلبة، يضعُ عود السيجارة بين شفتيه، حركةٌ سلسةٌ، غير مفتعلة. طبيعيةٌ إلى حدّ الفتنة. يضغط ولاعته، شرارة صغيرة تشتعل بقلبي أولًا، ثُمّ لهبٌ يلامس طرف السيجارة، يسحب فيها أول نفس، وهجٌ برتقالّي خافت بين أصابعه، يمتص الدخان بعمق، بعمقٍ أشد، أنفاسه الأولى بعد غرق طويل، ثم... اللحظة التي أعشق، يسربه ببطء. أنا غارقة في نفاث الدخان...لا يطلقه دفعةً واحدة، يتلاعب به، يتركه يتسرب بين شفتيه قليلًا قبل أن ينفثه، الدخان يتردد بين البقاء وبين الخروج. يرفع رأسه قليلًا إلى الوراء، أنفه الطويل يعلو أكثر، عيناه نصف مغمضتين، السيجارة بين إصبعيه، يطلق زفرته الكثيفة، الدخان يلتف حوله كضبابٍ سحري... كسحره هو.

ثم يتركني وسط هذه الدوامة.

طلبتُ عصير رمان، نكهة الطفولة التي أعود إليها حين أحتاج شيئًا يُذكّرني بأن العالم لم يكن دائمًا بهذا التعقيد.

عصام وجُمان طلبا قهوة سوداء، مشروب المقهى المفضل لديهما،

خليط من الإسبريسو الداكن بقوامه الثقيل، ورغوة خفيفة بالكاد تلمس السطح، سادة كما يحبّان، وبلا إضافات، يُفضلان مواجهة الحياة كما هي.. مُرّة.

كل شيءٍ بدا طبيعيًا؛ الحديث العابر، نغمات الموسيقى الهادئة، صوت فناجين القهوة وهي تُوضَع على الطاولة.

حتى لحظة توقفت فيها الحياة أمامي.

رأيتُ جُمان تمد يدها خِلسةً، تسحب سيجارة عصام من فمهِ... إلى فمها. بثقةٍ معتادة، كأنها فعلتها ألف مرة، كما لو أنّ يده ويدها شيءٌ واحد، فمه وفمها واحد.. لا فارق بينهما.

أمسَكتها بين أصابعها بالطريقةِ التي يُمسكها هو، ورثت عنه تلك اللمسة، السيجارة تعرف طريقها بلا استئذان.

ثم... وضعتها بين شفتيها.

أخذت رشفة، كما قالت، نفسًا عميقًا، سحبت الدخان إلى رئتيها، أخرجته ببطءٍ يشبه طريقته، يشبهه تمامًا.

نظرتُ إلى عصام...

لم يفعل شيئًا.

لم يُبعد يَدَها، لم يسحب السيجارة منها، لم يوبّخها، لم ينطق حتى.

تركها تفعل ذلك بحريّة، كما لو أنّ هذا لا يعنيه، كما لو أنني لستُ هنا.

اختنقتُ، بدخان الخذلانِ.

شيءٌ داخلي احتقن ثمّ انفجر.

ابنتي طفلة، خمسة عشر عامًا، تُدخن؟ وعصام يراها بهذه البراءة المُدمَّرة؟ يسمح لها بأن تتجاوز كلّ الحدود أمامه وأمامي؟

لم يكتفِ بذلك، نظر إليّ بتلك النظرة؛ نظرة الأمر بالسكوت، التحذير من أي كلمة تفسد اللحظة بينهما لا تحكي شي.

نهضتُ:

ـ برجع البيت.

مكتبة
t.me/soramnqraa

عصام حاول أن يُبقيني:

ـ خليكي قاعدة، ما في داعي ينشغل بالك على يوسف.

خرجتُ من المقهى أنوح. عادا معي، جُمان تسير بجانبه ولا تراني.

لم أعد أحتمل هذا الجدار البارد بيننا، ما إن دخلنا البيت حتى انفجرَ كلّ شيء. التفتُّ إليها، واجهتُها مباشرة:

ـ تدخنين؟

استدارت مبتعدة إلى غرفتها، كأنّني لم أقل شيئًا.

أمسكتُ بيدها لأوقفها:

ـ لما أكلمج توگفين وتطالعيني!

طالعتني بازدراء، ما رأيته في عينيها لم يكن إلا كُرهًا:

ـ شنو تبين مني؟!

نبرتها لم تكن نبرة فتاةٍ تتحدث مع أمها، إنّها نبرة شخصٍ يواجه خصمًا. صفعتها.

لم أكن أريد، لم أفكر حتى، يدي كانت أسرع من إدراكي، لحظة صمت، ثمّ.. بُكاء. بُكاءٌ ممتلئ بكل ما لا أفهمه. سحبها مني، احتضنها، أخذها إلى غرفتها، أغلق الباب وتركني وحدي، لا أحد يُهدئني، أو يسمع غضبي.

سمعتُ بكاءها، وصوت عصام يرتفع معها، كلماتهما سويدية، كأنهما ولدا في هذا البلد، يختبئان عني في لغةٍ لا أفهمها.

هذا ما ترتب عليه دلالي المفرط لها منذ كانت طفلة. ظننتُ أنني أعوضها عمّا فقدته من غياب الأب، أحميها من عقدةٍ لازمتها في صغرها، أصنع لها عالمًا لا تمسه القسوة غمرتها بحبٍّ لا قاع له، منحتها كلّ شيء قبل أن تطلُب، إنّها حتى لا تعرف معنى النقص، أَحُول دون لحظة تشعرُ فيها بأنّ هناك شيئًا ينقصها. لم أدرك أنني كنت أخلق سجنًا من حرير، أرويها بفيضٍ حتى اختنقت جذورها، حتى صارت تراه عبئًا وقيدًا تريد أن تتحرر منه بأي طريقة.

لم أتوقع أن يأتي يومٌ أنظر في عينيها، فلا أجد الطفلة التي خبأتها في عينَيّ، بل أجدُ خصمًا، عدوًا يواجهني بنبرةٍ جافة، يصدني كأنني لم أكن يومًا ملاذه الوحيد. حين استدارت مبتعدة، دون أن ترد، دون أن تنظر حتى، شعرتُ بأنّ حبّي كله لم يكن سوى وهم، وأنني، بطريقة ما، لا شيء أعني لديها.

وحين أمسكتُ يدها، وأنا أرتجف بين غضبٍ وانكسار، كنتُ أبحث عن أثرٍ للحبّ في ملامحها، رأيتُ ملامح شخصٍ يرى في الآخر عدوًّا

يكرهه، يحتقره، سجّانًا عليه أن يتحرر منه. لم أشعر بيدي حين ارتفعت، لم أستوعب سوى صوت ارتطام كفي بخدّها.

لم يكن ذلك رد فعل، أو لحظة غضب. كان اعترافًا بأن الحبّ الذي منحته إياها لم يكن كافيًا، أو ربما، بطريقةٍ ما أو بأخرى، كان السبب في كلّ هذا الشرخ بيننا.

خرج عصام غاضبًا، غاضبًا مني.. أنا المخطئة، المشكلة ليست أنّ ابنتي تدخن، المعضلة الكبرى أنني لم أتقبل الأمر بهدوء كما يريد.

ـ معقولة؟ تسمح لها تدخن؟ وگدامك، وگدامي؟!

أنتظر إجابة، فلا يعطني سوى اللوم:

ـ أنتي بعمرك ما عرفتي تتعاملي معها. رح تضيعيها بقلة عقلك.. غبية!

ـ أنا غبية عصام؟! سألتُ بذهول.

أكملَ بلا تردد، وهو يهزُّ رأسه وكتفيه: كتيير.

ثم تركني واقفة وحدي في ليلة ذكرى زواجنا، بين غضبٍ وقهرٍ ووجعٍ غزير، وغطّ هو في نومٍ عميق.

***

بيني وبين جُمان، لم يكن التصدّع وليد لحظة، أو خلاف عابر انفجر فجأة، كان تراكمًا لسنواتٍ من انقطاع التواصل، من مسافات اتسعت بلا صوت، دون أن نحاول ردمها. أو بالأحرى، دون أن يسمح عصام بترميمها، فضلًا عن كونه السبب الأكبر في اتساعها. لم يمدّ جسور العودة، ويبدو أنّه كان يهدم ما تبقى منها، يزيد الهوّة بيني وبينها، يتركنا لخلوٍ يبتلعنا أكثر.

لم أدرك أن هذا الصدام سيكون الأول والأخير، لم أعرف أنني سأفقدها بهذه السهولة، تنهارُ علاقتنا للأبد. كبيتٍ متهالكٍ لم ينتبه أحدٌ إلى تصدّعاته حتى سقط بالكامل. هوّةً انفتحت بيننا ولم أعرف كيف أسدها.

كيف وصلنا إلى هنا؟

سنة وشهران وأربعة أيام...

مدةٌ أصبحتُ فيها أمًا مع وقف التنفيذ.

عصام مُحِق كعادته، حين قال لي في تلك الليلة القاسية:

ـ بغبائكِ رح تضيّعيها.

لكنني لم أكن غبية، كنتُ فقط أمًّا خائفة، والخوف أحيانًا يجعلنا نخطئ أكثر، نخسر من نحبهم أكثر، دون أن نعرف كيف نعيدهم إلينا.

***

في اليوم التالي، رنّ الهاتف... كان رقم المدرسة يضيء على الشاشة كإنذار:

ـ نحتاجكِ لاجتماعٍ عاجل.

اتصلتُ بعصام لأخبره، وكالعادة لم يُجب.

المدرسة ليست بعيدة، تحاملت على وجع الحمل، وأمسكتُ يوسف بيدي. تركتُ لعصام رسالة صوتية وسرتُ نحوها دون أن أعرف أنني أسير نحو الاحتضار.

لم يستقبلني أحد بابتسامة، وجوهٌ باردة، أكثر مما تحتمل روحي القلقة.

تم تحويلي من مكتبٍ إلى آخر، من مسؤولةٍ إلى أخرى، حتى وجدتُ نفسي أخيرًا في غرفةٍ مغلقة، أمام خمسة نساء يجلسن بترتيبٍ يشبه جلسة تحقيقاتٍ شاهدتها في الأفلام.

قالت إحداهن، بنبرةٍ رسمية:

ـ ابنتكِ اشتكتكِ لإدارة المدرسة.

ـ ماذا؟!

ـ نعم، أبلغت الإدارةُ مكتب السوسيال، الآن هما معكِ، للتحقيق بشأن حادثة العنف المنزلي.

ـ العنف المنزلي؟!

ـ ابنتكِ تقول إنكِ صفعتها، هل هذا صحيح؟

لم أحاول إنكار الحقيقة. كنتُ شخصًا مضطرًّا للدفاع عن نفسه أمام محاكمة غير عادلة:

ـ نعم، صفعتها.

بثباتِ قلتُها، بصوت أمٍّ لم تكن تخجل من تربيتها لابنتها.

رفعتُ نظري نحوهن، عيناي مشتعلتان بغضبٍ:

ـ لكن... هل أخبرَتكُم لماذا؟ هل أخبرَتكُم ما الذي جعلني أفعل ذلك؟

تابعتُ بحدةٍ لم أستطع كبحها:

ـ ابنتي تدخن! طفلة عمرها خمسة عشر عامًا، تمسك السيجارة أمامي، وأمام أبيها، هل أصفّق لها وأقول: أحسنتِ؟!

رفعت الآنسة إلين نوردستروم حاجبها، نظرت إليّ نظرة ساخرة، قالت:

ـ السيدة لولوة، لا يحق لكِ ضربها، مهما يكن السبب.

ـ لا يحق لي؟! إنها ابنتي! لي الحق في أن أربيها كيفما أشاء!

ـ القوانين هنا لا تسمح بالعنف كأسلوبٍ تربوي، حتى لو كنتِ أمها.

ـ لكنها طفلة! التدخين ممنوع قانونًا لمن هم تحت السن القانونية، كيف تسمحون لها بذلك، ثُمّ تلومونني على منعها؟!

ـ ما فعلَتهُ ابنتُكِ شيء، وما فعلتِهِ أنتِ شيءٌ آخر. تصرفها خاطئ؛ لكن تصرفكِ خطير.

ـ خطير؟!

ـ نعم، في السويد، لا نستخدم العنف لحل المشكلات العائلية، هناك أساليب أخرى للحوار، للعلاج، للتواصل.

بمرارةٍ قلت:

ـ وأين الحوار عندما قررت ابنتي أن تذهب إليكم بدلًا من أن تأتي لي؟

ـ ربما لأنها شعرت بأنكِ لن تفهميها. أمٌ تتعامل معها بالصفعات، لا غير.

ـ ابنتكِ ستذهب معنا الآن.

ـ ماذا؟!

ـ سوف تُوضَع تحت رعاية مؤقتة، حتى يتم تقييم الوضع.

ـ لا! جُمان لن تخرج معكم!

***

الذئبة العجوز

لم أقبل، لن نقبل.

أنا وعصام لن نرضخ، لن نُخفض رؤوسنا لقرارٍ بدا نهائيًّا، كأنه قضاءٌ لا يُرَدّ. تقول عبير إن السوسيال حين تأخذ طفلًا من أسرته، لا يردونه بسهولة، لابد من معركةٍ طويلة، قانونية ونفسيّة، وبيروقراطية، الوالدان مذنبان حتى يثبت العكس.

زوجها يقول: «علينا أن نصبر شهورًا، لأنها قضايا معقدة، أنها جهة صعبة غير محايدة، وعندما يأخذون طفلًا، يبيتون النية على إبقائه في الحضانة السويدية، لا إعادته إلى أسرته».

قال أيضًا: «لا مفرّ من تعيين محامٍ مختصّ بقضايا الـ LVU؛ هذا القانون يمنح الدولة صلاحية سحب الأطفال عند الاشتباه بالإهمال أو العنف».

عصام يبدو أكثر صلابة مني، هادئًا، لا يُظهِر انهياره، ولا يَسمَح للحزن بأن يسيطر عليه، بدأ يتحرك فورًا.

تواصل مع منظمة حقوق الأطفال (Barnens Rätt)، قالوا إنها منظمةٌ مستقلة تُساعد عائلات تواجه مشكلات مع هذه المؤسسة. أعطونا قائمة محامين لهم خبرة في هذه القضايا، وحجزنا موعدًا على الفور.

أخبره المحامي أنّ هناك خطوات علينا اتخاذها فورًا؛ يطلب ملف القضية بالكامل، ليقدم استئنافا رسميا إلى المحكمة الإدارية، يطلب جلسة استماع رسمية بحضورنا. نتحرك في كلّ هذه اتجاه.

لكن الخبر الأسود يجيء:

«ابنتكم ستُنقَل إلى عائلة حاضنة سويدية».

قدمنا التماسًا إلى المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان. تواصلنا مع جمعيات حقوقية تدافع عن العائلات المهاجرة ضد تعسفهم، نظمنا احتجاجًا صغيرًا أمام مكتبهم في سودرتاليا.

لكنهم لا يتراجعون. بدأوا بمراقبة كلّ تحركاتنا، طلبوا تقارير عن بيئتنا المنزلية، عن صحتنا النفسية، عن تعاملنا مع يوسف، حتى إنهم استجوبوا الجيران.

دوامة قاسية، صار علينا إثبات أننا أبوان صالحان في بلاد لا تعترف بثقافتنا ولا بأساليب تربيتنا.

***

بعد ثلاثة أشهر، حصلنا على جلسة استماع في المحكمة الإدارية. خلال هذه الأشهر الثلاثة، لم يسمحوا لنا بالتواصل مع جُمان، لا أنا ولا عصام ولا بنات عبير. جلسنا في القاعة المخصصة، عصام متماسكٌ، وأنا على وشك الانفجار. جُمان لم تكن هناك، ممثلتها القانونية موجودة.

جُمان تحتاج إلى حمايّة مني على حد زعمهم. توارت عني، تركت خلفها سؤالًا يتغذى على الوقت ولا يشبع منه أبدًا؛ هل كانت تكرهني إلى هذا الحد؟

أمام القاضي، تحدث المحامي:

ـ السيدة لولوة صفعت ابنتها مرّة واحدة، بسبب التدخين، لم تكن حالة عنف منزلي مستمر، لم يكن هناك خطر حقيقي على الفتاة.

ـ إذا كانت الدولة ترى أنّ التدخين ممنوع لمن هم تحت السن القانونية، فكيف يُسمَح لطفلة بأن تُبعَد عن أمها لأنها رفضت السماح لها بالتدخين؟

ـ لا يوجد دليل على أنّ البيئة المنزلية غير آمنة.

ـ جُمان ليست يتيمة، لديها والدان يطالبان بحضانتها.

ـ هذه تقارير من مركز تأهيلي تثبت أنّ الأم حريصة كلّ الحرص على متابعة تأهيل ابنها.. وهذه شهادة معتمدة من مملكة البحرين تثبت أنّ الأم أخصائية تربية خاصة وأنّها مؤهلة بما يكفي.

لكن السوسيال يدافعون عن موقفهم كما لو أنني خصم قديم لهم، يصرون على أخذ ابنتي، يقولون إن جُمان تشعر بعدم الأمان مع أمها، وأن الصفعة دليل على بيئة غير صحيّة، بدليل أن جُمان هي من أبلغت عن الأم. وهذا مستند قوي ضد الأسرة... قالوا:

ـ جُمان ترى أن البقاء مع العائلة السويدية هو الأفضل لها.

بعد نقاش طويل، يصدر القاضي الحكمَ مقتنعًا تمامًا بدفاع السوسيال:

«سيُسمَح بجلسات لمّ شمل تدريجية، بعد مراقبة وتقييم العلاقة بين الأم وبين ابنها داخل المنزل لمدة ثلاثة أشهر، قبل اتخاذ القرار النهائي».

لم يكن نصرًا كاملًا، هي خطوة.

الطريق نحو استعادة جُمان.

***

السويد... تبدو وطنًا آمنًا، مثاليًّا: حقوق، حرية، رعاية. نظنّ أننا نجونا. أن أطفالنا أخيرًا بأمان. لكننا لا نعلم أنّ الخطر لا يأتي دائمًا بصوت القذائف؛ أحيانًا، يلبس قناع العدالة، ويخطفهم باسمها.

في أسبوعي الأخير من الحمل، جاءتني ثلاث موظفات من مكتب السوسيال، جئن لمراقبة تعاملي مع يوسف، كيف أعتني به، ويقيمون طبيعة علاقتي معه. لم تكن زيارة، كانت لأجل تحقيق، والمتهمة أنا.. جريمتي هي أنني أم من ثقافة أخرى. ظاهر الأمر تقييم وضعي النفسي، للحكم عليّ إن كنتُ قادرة على تربية طفلي أم لا!

كنتُ أخوضُ معركة استعادة جُمان، ولا طاقة لأخوض حربًا أخرى. فتحتُ الباب وطردتهم:

ـ اخرجوا، لا أريد تقييماتكم، لا أحتاج أحدًا ليُخبرني كيف أكون أمًا.

ظننتُ أنّ الأمر قد انتهى هناك.

لكنهم عادوا سريعا. عادوا بأسوأ ما يمكن أن يحملوه معهم.

عادوا بعد ولادتي بكريم، عادوا بقرار وضعني على حافة الجنون:

«يُسحَبُ الطِّفلان، يوسف وعبد الكريم، من والدتهما بسبب عدم استقرارها النفسي، وعدم قدرتها على توفير بيئة آمنة لهما».

يوسف سحبوه من مركزه دون علمنا، وكريم اقتلعوه من أحضاني، روحي تُنتزع كما يُنتزع القلب من الصدر دون تخدير.

طفلاي...

يوسف لم يعرف غيري، كريم لم أشبع من رائحته بعد، لم أميز حتى طلة وجهه، كنتُ سأتعافى من كلّ شيء باحتضانه. لم يسمحوا لي بذلك.

ولداي يُخطفان مني بقوة القانون!

كيف تفرغ يداي بهذه السرعة؟ يُنتزع مني اسمي، دمي، عناقي، حكاياتي وكلّ أغنياتي؟ لم أعد أُمّهما، لم يكن لي حق الاعتراض، لم يكن لي حتى حق الانكسار علنًا. مددتُ يدي لأمسك به، لأتعلق بملامحه قبل أن يبتلعه المجهول، يدي لم تتحرك. جسدي كله صار ثقلًا لا ينتمي لي، أطرافي انسلخت عني، شجرةً تُقتَلَع من جذورها ببطء.

وقفت، ثُمّ سقطت.

حاولتُ مرّة أخرى، أبحث عن موطئ قدم على أرضٍ تتآكل تحت وهني.

وقفت... ثُمّ سقطتُ من جديد.

كان تفككًا، لا سقوطا، أتفكك إلى أجزاءَ صغيرة، كلّ شيء في داخلي يتمزق دون صوت.

العالمُ صار ضبابًا، لا أرى المشهد بوضوح، تفاصيله تتلاشى، الأصوات تُصبح طنينًا بلا معنى، جسدي يهوي إلى الداخل أكثر مما يهوي نحو الأرض.

إذن كلُّ ما مررتُ به مجرد مقدمات لموتٍ حقيقي.

وعصام لم يكن أقوى مني هذه المرة. يقف أمامهم، يصرخ، يحاول أن يمنعهم، هم أقوى، أكثرُ تنظيمًا، أكثر برودًا، يؤدون مهمة روتينية لا أكثر.

ـ هذه جريمة! يوسف لديه توحد، كريم لم يكمل حتى أسبوعه الأول! لا أحد يكترث.

القرار تمّ اتخاذه، علينا نحن أن نستسلم.

أستعيد المشهد نفسه مرارًا...

جئنا هنا ظنًا أن القانون درعٌ يحمي أبناءنا، آمنّا بنظام يرعى أطفالنا، يُعيننا على الاعتناء بهم، لا ينتزعهم منّا باسم الصالح العام. كُنّا سُذّجًا... نعيشُ وهم الحقوق، في بلادٍ تُعامل الأم كموظفة، والأب كرقمٍ في ملف.

ما لم تكن مثاليًا على طريقتهم، تُنتَزَع منك إنسانيتك، تُقمَع مشاعرك، يُخطف أطفالك وتُدان بانفعالاتك، هكذا.. إذا لم تكن مذعنًا في كلّ شيء، تسرق منك عائلتك ببساطة، دون أن تستطيع فعل أيَّ شيء.

مرجلٌ يغلي في رأسي، جسدٌ منهك داخلي، حمى تفترسني، لم يمضِ أسبوعٌ على ولادتي كان عليّ أن أكون قوية من أجلهم، لأحارب من اختطفهم، جسدي يحاربني، عاجزة أمام يد قانون لم ترَ فيّ سوى امرأة غير كُفء.

طريحة الفراش، أناديهم بصوتٍ نحيل، جُمان، يوسف، كريم... كريم لم يلتفت إلى صدري، لم يبحث عن دفئي.. صدري متورم، حليبه يتدفق بغزارة، ثقل مؤلم يفيضُ ولا يجد من يخفف حمله، تمامًا كقلبي.

أمٌّ لا يطلبها أحد، أمومة معطلة لامرأة أنجبت ثلاثًا، ولم يعد في حضنها طفلٌ واحد!

في سريري، في وحدتي، بين صرخة كريم وصراخي المكتوم، عصام يحتضنني، يُهَدِّئني ويطلق وعدًا مبتورًا: «وحق عيونك لرجعلك ياهن كِلهن، جُمان حاكتني اليوم بالسر.. مشغول بالها عليكي.. ندمانة عاللي صار، بدها ترجعلك أحسن من قبل».

***

سجل أسود

رفعنا قضية.

استعنّا بمحامٍ أكثر صرامة من السابق، خبيرٍ بقضايا السحب القسري للأطفال. تواصلنا مع وسائل الإعلام، بدأنا في كشف الجانب الآخر من حقوق الطفل في السويد، جانب لا يُكتب عنه كثيرًا، لا يُكتب عنه أبدًا.

السوسيال بدأوا بمهاجمتنا. زعموا أننا لا نستطيع الاعتناء بيوسف؛ لأنه من ذوي التوحد، وأنّ كريم يستحق أن ينشأ في بيئة أكثر استقرارًا. حاولوا تشويه صورتنا، استدعوا مختصين نفسيين لتقييمنا، لإثبات أننا غير مؤهلَيْن.

عرضوا يوسف وكريم للتبني لعائلات سويدية على أنهما طفلان يتيمان، كأننا لم نكن. هنالك أدركنا أن الأمر ليس إبعادًا مؤقتًا، هي محاولة لفصلهما عنا نهائيًا.

عصام يُدرك أن اللعب داخل النظام لن يُعيد أطفاله، لم يجلس في زاوية يبكي. بدأ يتحرك إعلاميًا، يدرك أن هذه الحرب ليست حرب محاكم ووثائق رسميّة حصرًا، هي حربٌ مجتمعية بالدرجة الأولى، معركة رأي عام، تحتاج إلى ضجيج، إلى صوتٍ لا يمكن تجاهله.

خاطب صحفيين عربًا، أرسل القصة موثّقة، بالقرارات، بالأوراق التي انتُزع بها أطفاله كما تُنتزع الحقوق من اللاجئين. طرقَ أبواب الإعلام البديل، القنوات التي تصرخ بوجع الجالية، لكن الرد جاء باردًا، الصحف لا تحبّ القصص التي تشبه قنابل موقوتة.

أدرك أن الإعلام الرسمي يُقصي الصوت حين يُربكه، ففتح نافذته بنفسه. أنشأ صفحةً أسماها: جرائم السوسيال. غرد تحت وسم: #خطفوا أطفالي. ثم اقتحم تيك توك، في البداية كمن يطرق بابًا لا يعرفه، وسرعان ما اكتشف أنه منصةٌ تُشعل الرأي العام بلحظة. يحكي عن وجعٍ مشترك، عن آباء سُلبوا كما سُلب. بدأ الصدى يتكاثر... ووجعه لم يعد وحده.

شعار أنقذوا أطفالنا من السوسيال اشتعل نارًا في هشيم المنصّات.

بدأت الرقابة، السوسيال يتابع، الصحف تهاجم، تقارير تصفه بالمحرّض. تيك توك يحذف، وهو يعيد النشر، تهديداتٌ من مجهولين، بلاغات. لكنّه لم يتراجع. ازداد صوته حدّة، وعنادًا. صار عصام صوتًا لا يمكن تجاهله.

كان للسلطات رأيٌ آخر، استدعوه بتهمة أنّه ينشر الكراهية ضد مؤسسات الدولة، وصلت القضية إلى جهات أممية بدأت تراقب إجراءات سحب الأطفال من العائلات المهاجرة.

كان العام الخامس قد حلّ، العامُ الذي يفترض أن يمنحه الاستقرار الذي قاتل من أجله أن يحصل على الجنسية السويدية، وبدلًا من أن تصله رسالة الموافقة، بدأت الإشعارات تتوالى بأنّ طلبه متوقف، وأنّ

الإجراءات لم تعد تمضي كما ينبغي. هذه السنوات الخمس لم تُحسب، كلّ خطوةٍ قضاها حذِرًا ملتزمًا بالقوانين لم تشفع له.

في النهاية، هم لا يحتاجون إلى سببٍ واضح، يكفي أنّ اسمه صار أكبر من مجرّد لاجئ، يكفي أنّه أزعج السلطات، أنّه حرّك الماء الراكد في قضية حساسة، أنّه لم ينحنِ حين توقعوا منه أن يفعل. إشارة غير مباشرة بأن الأبواب المفتوحةَ أُغلقت للأبد.

ثم وقع انقلاب جديد، في ذروة الفوضى، أقبل عليّ، بنظرة لم أستطع فك شفرتها، يقول:

ـ رح سافر.

قالها بصوتٍ هادئٍ مريب. لم أكن بحاجة لأن أسأل، كنتُ أعرفُ مسبقًا أنّه لن يُجيب، الأسرار عالقة بين شفتيه دون أن تخرج.

ـ لماذا؟ إلى أين؟ لصالح من؟ أنا لا أسأل.

قال:

ـ أسبوع وراجع.

ضمني، قبّلني قبلة طويلة.. كأنما يودعني:

ـ لولو، وعديني تضلّي تهتمي بحالك ما رح طوّل.

ولم ينتظر إجابتي، استدار، واختفى.

بقيتُ أراقب ظلّه يتلاشى، وشيء كبير في داخلي يتلاشى معه.

تركني وحدي أصارع في ساحةٍ شرسة... ورحل.

أمٌّ تُحاكَم على أمومتها. لم أكن أحارب فقط لاستعادة أطفالي، كنتُ أحارب نفسي، أحارب إحساسًا ثقيلًا بأنني وحدي مَن يجب أن يُحاسب، لأنني كنتُ نقطة الضعف التي دخلوا عبرها.

كنتُ أظن أنني أصبحتُ قوية.

أقول لنفسي: لقد نجوتِ ممّا هو أسوأ؛ لكن السقوط يحدث حين نكتشف أنّ من ظنناه رفيق الرحلة لم يكن سوى عابرٍ اختار مخرجًا طارئًا، تاركًا لنا كلّ الدمار، والأشواك التي زرعها ورحل.

لن أنهار الآن. ليس لأجلي؛ لأجل أبنائي، أصواتهم التي لا تزال تترد في رأسي، وعيونهم التي تنتظرني خلف الأبواب المؤصدة.

***

حين تضيق الأرض، يبحث المرء عن جذوره.

آخر خيطٍ يتشبث به حين تتلاشى الخيارات. الغربة شعورٌ قاسٍ بالعجز، بالتيه في أرضٍ لا تعترف بك مهما حاولت. هنا، في بردٍ لا يلين، وجدتني وحدي: لا عشيرة، لا سند، لا بلد يقف خلفي. بحرينيّة، نعم، ما زلتُ أملك ذلك الجواز الأحمر الثقيل. ربما لا ينقذ، لكنه يطرق بابًا.

ضاقت بي الأرض، فمضيت نحو سفارة بلدي.

ـ أنتِ بحرينية، لن نتركِكِ وحدكِ.

هذا ما كنتُ أريد أن أسمعه، ما كنتُ أتمناه، لم أكن واثقة مما سأجده هناك حين طرقت أبوابهم. الطرقات باردة، الرصيف مغطى بطبقةٍ رقيقةٍ من الجليد، الريح تقسو على وجهي؛ خطواتي ثقيلة، أسير نحو ملاذي الأخير.

السفارة البحرينية لم تكن كبيرة؛ لكنها مختلفة عن كلّ شيءٍ حولها. أعلامٌ حُمرٌ ترفرف، رائحةُ قهوة عربية تختلطُ برائحة أوراق المعاملات الرسمية، رجالٌ يرتدون الدشداشة الشتوية، موظفات يتحدثن العربية بنبرةٍ رسمية؛ لكنّها مألوفة.

دخلتُ وأنا أضغط بيدي على ملفي، كلّ الأوراق التي جمعتها ضد السوسيال، مستندات القضية، استئنافات المحامين، التقارير الطبية عن حالتي النفسية، كلّ شيءٍ يمكن أن يُثبت أنني أمٌّ ولست مجرمة.

لم أكن مرتّبة، لم أرتدِ وجهي الرسمي، كنت فقط أمًّا تحمل على كتفيها آخر أملٍ متاح. تقدّمتُ إلى الموظفة عند الاستقبال، ناولتُها جواز السفر، وقلت:

ـ أنا مواطنة، وأطفالي في خطر.

سجّلت اسمي، طلبت مني الانتظار، جلستُ على الكرسي الجلدي البارد، أراقب عقارب الساعة وهي تتحرك ببطءٍ مميت، أراقب المراجعين الآخرين يأتون ويغادرون، وأنا وحدي أجلس هناك، كجزءٍ من أثاثٍ بارد، لا أحد يعرف أنّني أحمل حريقًا في داخلي.

ثم جاء النداء:

ـ السيدة لولوة، تفضلي.

تقدمتُ نحو المكتب، يجلس مسؤول القسم القنصلي، رجلٌ في منتصف الأربعينات، بهدوءٍ رسمي، ملامح لا توحي بالكثير.

ـ تفضلي أختي، أخبريني بمشكلتكِ.

انزلق الكلام، ما خططتُ لقوله، وما كنتُ أحاول أن أبقيه في داخلي، كلّ شيء دُفعةً واحدة.

ـ السوسيال أخذوا أطفالي بحجة أنني غير مؤهلة، غير مستقرة، هذا غير صحيح، هذه مؤامرة، أنتم سفارتي، أريد أن تساعدوني!

يستمع، لم يقاطع، يسجل ملاحظات؛ لكن ملامحه لا تتغير.

ـ أين زوجكِ؟

ـ سافر، تركني وحدي، لا أملك إلّا هذه الورقة الأخيرة، جوازي، أنا بحرينية، وهذا يعني أنّ البحرين يجب أن تدافع عني، أريد أن أعود لبلدي بأطفالي.

تبادل النظرات مع موظفة تجلس بجواره، قال بصوتٍ هادئ:

ـ السيدة لولوة، نحن نتفهم موقفك، الوضع معقد، السويد لديها نظام صارم في قضايا الأطفال، قرارات السوسيال لا يمكن التدخل فيها بسهولة.

ـ لكنني بحرينية! هؤلاء أطفالي، لا يمكن لدولة أن تأخذهم مني هكذا!

ـ سنبذل جهدنا؛ لكن القوانين السويدية لها سيادة على أراضيها، الحل القانوني هو متابعة القضية عبر المحكمة.

ـ وماذا عن التدخل الدبلوماسي؟

ـ يمكننا إرسال استفسارات رسميّة؛ لكننا لا نملك صلاحيات لإجبارهم على إعادة أطفالك، علينا التحرّك بحذر، حتى لا يُستخدَم ذلك ضدكِ في القضية.

ضربتُ الطاولة بيدي، لم أعد أحتمل نبرة الهدوء هذه.

ـ أنا لا أطلب مجاملة! أطلب استعادة أطفالي، هل يفهم أحدٌ هنا ماذا يعني أن يُنتزع منك أطفالك؟!

لم يُجبني، فهمتُ أنني أمام بابٍ آخر قد يُغلق في وجهي. ثم قال، بصوتٍ أقل رسميّة:

ـ اسمعي أختي، سنحاول؛ لكن هذه القضايا تحتاج وقتًا، علينا التحرك بخطواتٍ مدروسة، لا وعود زائفة هنا؛ لكننا سنتابع معكِ.

ناولني ورقة فيها أرقام محامين عرب متعاونين مع السفارة، وأرقام بعض جهات يمكن أن تقدم لي مساعدة قانونية إضافية. لم يكن هذا ما أريده؛ لكنني كنتُ أعلم أنّه على الأقل، لم يغلق الباب تمامًا.

الظفر بفتات الأمل خيرٌ من لا شيء، خرجتُ من السفارة، بقناعة تامة أنّها حربٌ، عليّ أن أخوضها وحدي.

البيروقراطية ستطيل الأمر، السفارة ستساعد بحدود، أنا بحاجة إلى ما هو أكبر من ذلك.. بحاجة إلى أن أكون قوية، أبحث عن كلّ الأساليب الممكنة، أن أكون أكثر عنادًا من نظام يشنُ حربا على الأمومة، الفطرة الإلهية التي لا تُغلب.

لن أستسلم

***

أرواح على الهامش

في مقهى دروتنينغ قرب منزلي، أجلسُ ومعي أوراقٌ مبعثرة، أبحثُ عن ثغرةٍ، عن بابٍ مخفيٍّ يعيد لي أطفالي، أم إيستر، الجارة العجوز. تدخل، تلقي نظرة في زوايا المقهى، تحدق بي:

ـ أبحثُ عنكِ. ثمّ أردفت:

ـ لم أكن أعرف أن ابنتي متهوِّرة إلى هذا الحد..

نظرتُ كالبلهاء ولم أفهم.

ـ هربت مع عشيقها خارج السويد، لم تخبرني.

قلبي متوجسٌ، كأنه يعرف الجواب قبل أن تنطق به...

ـ هربت مع عصام زوجك..

ـ سافر مع إيستر؟

هذه مهمته إذن؟ الزوج والأب المناضل عاشق!

ترك البلد، في أوجّ المحنة، تركني، حمل عشيقته ورحل.

رغم الانفجارِ في داخلي؛ لكنني لم أكن أملك القدرةُ للحزن عليه.

حزني الأكبر أمامي، أطفالي ضاعوا. هو ليس سوى خائن.

لم يكن عصام كما هو، أو ربما لم يكن يومًا كما ظننتُه.

رجلٌ مليء بالأسرار، منشغلٌ بقضايا أكبر مني، أكبر من أطفالنا، أكبر من فكرة العائلة نفسها. كيف يمكن أن يُحارب من أجل استرجاع جُمان؛ لكن غموضًا يلف علاقته بها، غموضٌ كثيف يمنعني فهم كل شيء، يحجب الرؤية تمامًا. علاقة أبعد مما أستطيع إدراكه. حين أسأله عنها، تأتي إجاباته مبهمة، مقتضبة، لا يريدني أن أقترب أكثر.

هو الآن منشغلٌ يخوض حربًا خاصة به، وأنا هنا أحارب وحدي.

منشغلٌ ربما بغرام جديد، أو بفتح الشام، بمفاوضات، بتهديدات، بمقاطعَ ينشرها ويشعلٌ بها جبهةً أخرى؛ يتقن فنّ الانسحاب حين أحتاجه، ويجيد الحضور فقط على الشاشات، أو بين سطور المنشورات. بينما أنا هنا، أقاتلُ من أجل استعادة أطفالي.

ورغم انكشاف الحقائق أشعر أنني أطاردُ ظلّه، أعلّق قلبي بأملٍ واهٍ، أشبه بسراب كلما حاولت الاقتراب منه ابتعد أكثر. خِلتُني أفهمه، ظننتُ أنّ غضبه لي، لا عليّ. أشاركه الانفعال كمن يطفئ حريقًا بالدموع، لكنّ شيئًا ما بدأ ينخرني، خوفٌ يندسّ بين ضلوعي، غضبٌ مكبوت...ظلّ راقدًا في الأعماق، يتنفس بهدوءٍ خادع، يتظاهر بالنوم لكنه يراقب كلّ شيء. بركانٌ في صدري، سنوات وهو يئنّ، يُراكم الحمم، يتغذّى على الكلمات المبتورة، على التجاهل، على التنازلات التي لم يلحظها أحد. كان صامتًا وصمته ليس سلامًا، هو انفجارًا يُحضّر نفسه دون ضجيج. الآن، استيقظ.

لم يعد يصغي لمحاولات التهدئة، ولا تنفع معه بقايا الرجاء. كل ما كنت أخشاه حدث.

الصوت الذي كتمته طويلًا، تحوّل إلى زئير.

أنهض من تحت الرماد، امرأةً أحرقتها خيباتها، ثم عادت من الحريق بعيون لا تنخدع، وبقلبٍ لا يُراوغ، وبغضبٍ لا يرضى إلا بالتحرر.

في عقلي، نضج القرار.. نضج كثيرًا إلى الحد الذي لا يحتمل التأجيل، رغم خوفي من شماتة أخي عبد الله وكل من راهن على فشل هذه الزيجة، حاربتُ كثيرًا حتى تنجح، حتى لا أعود إليهم امرأة فاشلة، مُطلَّقة من جديد؛ لكنه قرارٌ لا بُدّ منه.

أراقبُ هاتفي، أنتظر مكالمة لا تأتي.

وعدني أن يتصل، كالعادة، لم يفِ.

اتصلتُ به، لم يُجب. مرارًا يغلق الاتصال.

أخيرًا أجاب، صوته مرهق، منشغلٌ بغيري، أنا تفصيلٌ صغير في هامش عالمهِ المزدحم.

ـ عصام، محتاجة أكلمك.

ـ مو هلأ، لولو، أنا مشغول. إنتي بخير؟

ـ.....

ـ شو بدك تحكي؟

ـ بدي أطلق.

كأنه لم يسمع جيدًا:

ـ شو؟

ـ بدي أطلق، خلص.

وكأنه ليس بخائن. بسخريةٍ قال: «اللّٰه يهديكي» وأغلق الخط.

لم تكن لحظة غضب أو انهيار، هي حقيقة أعرفها منذ شهور، وربما منذ سنوات، حقيقة كنتُ أهربُ منها؛ لكنّني الآن أواجهها.. لا مفرّ!

لم يكن قرارًا سهلًا؛ لكنّه ممكن.

نحن انتهينا..

أعرف أنني سأخوض الحرب وحدي، أفعل ذلك منذ زمن. أعرف أن جُمان لم تَعُدَّني أمّها المثالية، وأن يوسف وكريم لا يزالان صغيرين على التعلق بي؛ لكنني أنا مَن يتعلّق بهم جميعًا، أنا التي تحتاج إليهم.. اليوم أكثر من الأمس.

وأعرف أيضًا...

أنني رغم تعلقي بأبيهم... لم يتبق مني شيءٌ لأعطيه.

لم أعد أرغب في انتظاره، في البحث عنه بين قضاياه، بين إحجياته، بين خطوطٍ حمراء لا أعلم ما يخبِّئ خلفها.

أحتاج نسخة كاملة مني.. تقف صلبة بكامل قواها حتى لا ينهار كلّ شيء..

حتى أجد نفسي وأطفالي.

للمرة الأولى، أيقنت أنني سأفعل ذلك بإرادتي ودون تراجع.

***

اتصلت بي كِندة، صوتها مضطرب، لم تذهب بي الظنون بعيدًا، ارتجافةٌ في نبرتها وضعتني على المقصلة.

ـ خالة لولو. وين خالي؟

ـ مسافر.. فيه شي؟

ـ خالة.. أنا غليان قلبي على جُمان.

ـ ليش؟ شوبها جُمان؟

ـ صار إلها أكتر من أسبوع ما بعتتلي شي، هاد مو من عادتها. من شهرين لهلأ كانت كل يوم تكتبلي، أو عالقليلة كل يومين، تقلي شو حاسة، شو وجعها، قدّيش مشتاقتلك وليوسف ولخالي، بدها ترجع، بس خجلانة منك ومن اللي عملته معك. هيه ندمانة، بس مو بيدها، مانعينها تتواصل معك.

ـ.....

ـ هاد مو كلّ شي، خالة... في شي تاني.

ـ تكلمي، كِندة، شنو فيه؟

ـ أبو الأسرة الحاضنتها، يتحرش فيها.

ـ شووو؟

ـ ايه، قالت لي هالشي. من أسابيع عم تبعت لي رسايل مشوشة. قالت أنو بيقرب منها كتير، ولما اشتكت للسوسيال، ما صدقوها، مرتو قالت أنو هيه عم تتوهم، وإنو بيحبها متل بنتو.

لكن كِندة لم تنتهِ بعد.

ـ خالة لولو، جُمان مو بخير، مو بس خايفة، هيه تدمرت نفسيًا. صارت مدمنة على المهدئات، قالت لي أن الدوا بيخليها تنسى، بس كمان حكتلي شغلة غريبة، حكتلي إنو أحيانًا بيمنعوها تاخده نهائيًا، وأحيانًا بيوفروه إلها بكميات كبيرة، مانها عم تفهم ليش هيك عم يعملوا معها، هيه مو متحكمة بحالها، حتى التفكير مانها قدرانة عليه.

لا أعرف متى جلستُ على الأرض؛ لكنني كنتُ هناك، على البلاط البارد جدًا، أحدّق في الضوء حتى آلمتني عيناي.

ـ خالة لولو؟ عم تسمعيني؟

غارقةٌ في كابوس مخيف، إحساسِ امرأة تعرف أنّ ابنتها تُسحَق في بقعةٍ لا تستطيع الوصول إليها. يجب أن نفعل شيئًا. يجب أن نفعل شيئًا الآن.

سقط الهاتف من يدي.

عدت لالتقاطه بأصابعَ مرتجفة، اتصلت بالمحامي، بمكتب السوسيال، أصرخ، أرجو، أُهدد، الأصوات على الطرف الآخر باردة، بيروقراطية، جملةٌ واحدةٌ تكررت في كلّ مرّة: «لا يمكننا مناقشة هذا معك».

لا يمكنهم؟! وأنا، هل يمكنني الاحتمال؟ هل يمكنني النوم وهي هناك، محاصرة بين ذئبٍ ونظامٍ أعمى؟

أبحثُ بجنون. أقلب كلّ حجرٍ، أُفتشُ عن أيّ أثرٍ يدلّني عليها. لا عنوان، لا معلومة واضحة، متاهة من أوراقٍ وإجراءاتٍ صُممت خصيصًا لإبقائي بعيدة.

فتحتُ الحاسوب، بحثت في كلّ وثيقة، في كلّ رسالةٍ قديمةٍ من السوسيال، في أي إشارةٍ قد تحمل اسم العائلة التي سرقتها مني. سألتُ كِندة، سألتُ المحامي، سألتُ حتى من لا يملكون إجابة. حتى نظام مكتب السوسيال حاولت اختراقه، عاجزة عن التفكير، أبحث عن ابنتي في العدم.

كل ما أحتاجه هو عنوان، لأذهب. لن أنتظر إذنًا من محكمة، لن أتركها هناك لحظة أخرى. سأقف أمام ذلك الباب، أطرق بعنفٍ، أدخل عنوةً، أنتزعها من يدهم، كما انتزعوها مني ذات يوم.

لكن أين؟

رنّ الهاتف برقم مجهول، ثم سمعت صوت عصام على الطرف الآخر، جاءني مندفعًا، متحمسًا:

ـ لولو! اسمعيني، عن قريب إن شاء الله رح تسمعي خبر رجوع لولاد لعندك، جُمان ويوسف وكريم كلهن عندك، الأمور عم تتحرك، بقسملك، بس طولي بالك بس، عم أكد عليكي هلأ كلشي لصالحنا!

كلماته تنتمي لعالمٍ آخر، عالم لم أعد أراه، أو أؤمن به. لم أسمع سوى اسمه يخرج من شفتيّ كصرخة استغاثة:

ـ جُمان في خطر!

ـ شووو؟!

ـ أب الأسرة عم يحتجزها! عم يتحرّش فيها! بنتنا عم تنأذى، وأنا ما عم أقدر أوصل لها! السوسيال ما عم يصدقوها، المحامي ما عم يعمل ايشي، الشرطة مو سائلة، أنا لحالي، لحالي يا عصام!

ما عدتُ أعرف إنْ كنتُ أقول الكلمات أم أنني أنزفها، تنفلتُ مني بلا إرادة، بلا تحكم، وجعي صار صوتًا:

ـ أرجوك، تعال، بترجاك، ما بقدر أعمل شي لحالي، ما بقدر!

صوته اختفى للحظة، للحظة شعرت بأن المكالمة انقطعت، قبل أن يعود صوته، حاسمًا:

ـ اسمعيني منيح... رح أرجع، واللّهِ رح أرجع.

قالها وهو يقسم، وهو يقطع وعدًا لا مجال للنكث به.

كنتُ أنتظر أن يقول شيئًا آخر، أن يضيف أي كلمة تخبرني كيف، أين، متى؟ بدلًا من ذلك، انقطع الاتصال.

الهاتف بين يدي، أحدّقُ في الشاشة الفارغة، في الرقم المجهول الذي ظهر واختفى فجأة.

***

التابوت

ثمانٍ وأربعون ساعة تلت مكالمة عصام، لا أذكر كيف مرّت. أفقتُ فقط على سيلٍ من الإشعارات، لا أستطيع حصرها، ولا حتى التركيز على فحواها.

مقطعٌ مصوّرٌ اجتاح المواقع، صوت عصام غاضبًا مزلزلاً، كأنه بُعث من رماده شخصًا آخر، خلفه لافتات وصور، لوجوه أطفال خطفهم السوسيال. لقد ألقى بروحه في قلب العاصفة، لا يساوم، أو يستجدي، هو يعلنُها حربًا على مؤسسةٍ حكومية عمياء سرقت منه أكباده.

«ولادي رح يرجعوا لعندي، هاد مو طلب، هاد إنذار. معكُن أسبوع واحد بس، وإلا رح تندموا!»

في نفس التوقيت ينتشر خبر آخر، تحوّل إلى عناوين صارخة متضاربة على مواقع التواصل الاجتماعي، لكنها أجمعت كلّها على النص التالي:

«انتحار فتاة عربية من أطفال السوسيال بعد تعرضها للاغتصاب عند عائلتها البديلة جراء تناولها جرعة كبيرة من المهدئات».

لم يكن ثمّ اسم أو صورة يتضمنها الخبر.

لكنني أعلم.

أعلم.

لا حاجة لذكر الاسم. ولا لمزيد من التفاصيل. أحاول امتلاك قدرة ذهنية كافية للضغط على زر الهاتف والاتصال بأيّ أحد، لا أرى، سحب رمادية اكتنفت كلّ ما حولي، ولم يمهلني المحامي وقتًا لأتصل، سرعان ما وردني اتصاله.

اتصل ليخبرني بأن مكتب السوسيال اتصل به وأخبره بالتفاصيل.

جُمان ابنتي رحلت.

***

عبير أول من وصل إلى البيت، لا أتذكر أنها قالت شيئًا، لكني أتذكر أنها احتضنتني. معها كِندة ودارين، بوجوه شاحبة، وأعين متورّمة من أثر البكاء. لا أحد يتحدث، وحده النشيج يتلاطم بين الجدران ويزيدها تصدعًا. كِندة تبكي وتردد كلمات متقطعة بين شهقاتها:

ـ كانت بدها تجي. بدها ترجع. كانت خايفة كتيير. قتلوها هِنّ يالليّ قتلوها.

دارين جالسة على الأرض، تمسك برأسها، وعبير تهتز بين يديّ، أنفاسها تتقطع، وأنا ذاهلة. أسمع نحيبهن، أراهن؛ لكنني خارج المكان والوقت. في مشهدٍ آخر، حيث جُمان، وحيدة، جسدها الهشّ ينهار تحت قسوة المهدئات، وظلم لم يترك لها سوى بابٍ واحدٍ للخلاص.

رأيتُها في مخيلتي، وحيدةً في ذلك السرير البارد، تتجرّع الموت، تتنفسه ببطء، وتستسلم له. هل فكرت بي لحظتها؟ هل نادتني كما اعتادت وهي طفلة صغيرة؟ هل انتظرتني حتى اللحظة الأخيرة؟

أمسكَتني كِندة بيدها المرتعشة، تهزني، تحاول أن تنتزعني من ذهولي، لكنني لم أستطع النهوض، أو البكاء كما يفعلون.

طلبتُ من عبير الاتصال بعصام. مرة، مرتين، عشرات المرات. لا إجابة. لا أعلم إن وصله الخبر أم لا؛ لكنني أعلم أنّه سيصله، عاجلًا أم آجلًا، سيضربه كما ضربني، وسيكسره ويتركه مهشمًا مثلي.

عصام يحبها، أعلم ذلك. حتى عندما افترقا، حتى عندما أخذته المسافات بعيدًا، كانت جزءً منه دائما، جزءً يستحيل اقتلاعه دون أن يخلّف داخله فجوة سحيقة. هكذا رأيت ذبول عينيه منذ غادرت المنزل، وسوادٌ التصق بملابسه، لم يفارقه لحظة، كأنه ندبة لم يبرأ منها.

أتصور لحظة وصول الخبر إليه، اللحظة التي يقرأ فيها الاسم، يدرك فيها الحقيقة، لحظةٌ لن يعود بعدها كما كان أبدًا.

هاتفه مغلق.

هل عرف فانكفأ في عزلته كما فعل بعد عودته من الموصل؟ أم أنّه لم يعرف بعد، ولا يزال معتقدًا أن جُمان هناك، تنتظر أن يفي بقسمه ويعيدها لي؟

اتصلتُ بالسفارة، أكرر الكلمات، بالصوت الميت ذاته:

ـ ابنتي بحرينية، يجب أن تُدفن في البحرين.

لا أتوسل، لا أطلب، لا أتحمل سماع أعذار أو قوانين.

بل أفرض حقي الوحيد كأمٍ خسرت كلّ شيء.

وسط هذا كله، رنّ هاتفي.

بكاؤه يأتيني من خلف الهاتف، أعرف كيف سيكون صوته، كيف سيتكسر، كيف سينهار دون أن يجد من يلتقطه... أنا لن ألتقطه.

عبير التقطت الهاتف، سمعتُ نحيبه، سمعتُ صراخه المكبوت، سمعتُ رجلًا ينهار تمامًا، دون أن يتمكن أحد من إنقاذه.

أغلقت عينيّ. أردت أن أنام، أن أغيب عن كلّ هذا.

لا نوم في الحداد، لا نوم حين يصبح جسدك ساحة نِزال.

***

ما يلي الموت أكثر قسوة، حين يتحول من كان يومًا ضوءًا في حياتك إلى مجرد إجراء رسمي، إلى جثمانٍ في صندوقٍ معدني، إلى شحنةٍ يجب أن تصل في موعدها المحدد، بلا تأخير.

بعد أسبوع، في المطار، جُمان وحدها، لا عصام، لا أطفالي.... وأنا لا شيء. كل شيء قاس؛ برودة العالم من حولي، نظرات الموظفين الخالية من الفهم، الجثمان في صندوق معدني، بارد، محمولٍ بين الأيدي، شحنةٌ يجب تسليمها في موعدٍ محدد. لا أحد

هنا يعرفها، لا أحد هنا يبكيها، لا أحد يهمه أنّ هذه الشحنة كانت يومًا روحًا تنبض، طفلةً تضحك، فتاةً تبحث عن يدٍ تنقذها... كانت يومًا ابنتي.

أي عزاءٍ يمكن أن يخفف من ثقل صندوق أحمله الآن في قلبي؟

أمرُّ بين المسافرين شبحًا لا يُرى، هم يذهبون إلى وجهاتهم، يحملون تذاكرهم، حقائبهم، خططهم، وأنا.. أحمل ابنتي في صندوق، عائدة بها لموتٍ قد يكون اختيارًا... أو كمينًا نُصِب إليها بنيّةٍ معتمة.

اتصلت بي حليمة، أخبرتني أنّ البحرين كلها تنتظر جُمان، وأنّ الجثمان لن يصل بهدوءٍ كما هنا، هناك من يترقب، من يواسي، من يشعر أن هذه الفاجعة ليست هي فاجعتهم.

ـ الناس كلهم ناطرينج عمتي. المطار بيمتلي. الإعلام، المسؤولين ناطرين... الكلّ بيكون في استقبالكم.

قالت حليمة إن مواقع التواصل لم تهدأ منذ أسبوع. صورها، قصتها، تفاصيل رحيلها، كلها تنتشر، لم تعد ملكي وحدي، صارت وجعًا عامًّا، قضيةً يتناقلها شعبي، انتظارًا لوصولها، انتظارًا لوداعها الأخير.

جُمان لن تعرف أن العالم بكى لأجلها، لن ترى كيف تحول موتها إلى خبرٍ تتداوله الصحف، ولن تسمع الهتافات حين تُحمَل على الأكتاف.

جلستُ في مقعدي أحدّق خارج نافذة الطائرة، أراقب الأضواء وهي

تبتعد، المدينة التي تنكمش تحت جناح الطائرة، مدينة الثلج التي أخذت مني كلّ شيء.

صرخت دون وعي مني سأودعكِ هناك. وأعود لأخوتك قبل أن تغتالهم هذه المدينة العجوز.

***

مرثية جماعية

جُمان.. قضيةُ رأي عام.

بخطٍ عريض، ميّزه ضَعفُ نظري، بين لافتاتٍ عدة رفعها مستقبِلو الجنازة في مطار البحرين الدولي. سيلٌ يمتدُ أمامي خلفَ سياج المساحة الواسعة لبهو القادمين، وجوهٌ متلاطمةٌ، بحرٌ هائجٌ لا يُدرَك مداه.

رجالٌ، ونساءٌ، وأطفالٌ وشيوخ، أعبرُ أمامهم، أتلفتُ يمنةً ويسرة، باحثة عن ملامحَ قديمةٍ لوجوهٍ كنتُ أعرفها قبل أنْ أُغيَّبَ في عالمٍ آخر.

أشعر بخطواتي بطيئة واهنة تتبعني نظراتٌ، أصواتٌ تأتي من بعيد، تتصاعد، ثمّ تتلاشى بين ضجيجِ الحشود.

كلّ شيءٍ حولي يدور، وأنا عالقةٌ في قوقعةٍ، أدور حولي ولا أسقط.

مشهدٌ يشبهُ خلفية فيلمٍ قديم شاهدتُه، يتّشحُ بالحزن، أضواءٌ ساطعةٌ من كاميرات التلفزيون، تضفي على المشهد لمسةً من غرابة.. كأنني أشهدُ تغطيةً لحدثٍ احتفالي جميل، ربما لا يخصُّني، كادرٌ أنيقٌ من تلفزيون البحرين ينتقل بين جماعاتِ المستقبلين، يلتقطُ لحظاتِ الثورة والألم، كلٌّ يسعى إلى توثيق الحدث المأساوي.

مسؤولون ونوابٌ، ورؤساءُ، وممثلين من منظماتِ المجتمع المدني والمؤسساتِ الحقوقية. وأنا بينهم أجرُّ حقيبتي الصغيرة متعثرة بجثتي.

وسطَ ضجيجِ شعاراتٍ تعلو وتخفت، سمعتُ من ينادي باسمي. حليمة؛ وجهٌ عرفني، رغم ملامحِ نعشٍ أثقلَ كتفي الهزيل.

ضمّتني بقوةٍ، تهزّ كتفي:

ـ لولوة، وين العروس؟

تصرخ:

ـ اللّٰه ينتقم منهم حسبي اللّٰه ونعم الوكيل!

جماعةٌ تردّد خلفها:

ـ حسبي اللّٰه ونعم الوكيل!

صمتٌ يلفّني بغطاءٍ ثقيل، يُجرّدني من الشعور بأي شيء..

ساعاتٌ طويلةٌ قضيتها في الطائرة، وفي محطات الترانزيت، من مطار آيرلندا إلى مطار البحرين حاملةً طفلتين في ذاكرتي وجثتين، جُمان وأنا.

قبل أنْ تتقدم إحداهن باتجاهي ممسكة بالميكروفون، سمعتُ صوت عبد اللّٰه:

ـ السموحة.. أختي تعبانة، ما تگدر تصرّح بشي الحين، يمكن بعد التشييع.

يتقدم نحوي بعينين تفيضان دمعًا، يفتح ذراعيه ويحتضنني، صوته غير الذي أعرفه دافئ متهدج، حنون:

ـ خيو گلبي وياج متگطع، اللّه يساعدج حبيبتي.

بينما يتقدم من عرفت تاليًا بأنه أحد النواب، لاستقبالي بكلماتِ رثاءٍ خافتة:

ـ جُمان ليست مجرد اسم، هي صرخةٌ في وجه الجريمة، رمزٌ لطفولةٍ مسلوبة وأمانٍ مغتصَب، أمانٍ يحتاجه كلُّ طفلٍ في هذهِ الحياة، يجب أنْ نعملَ معًا لضمان عدم تكرار ما حدث.

ارتفعت الأصوات بالتأييد، معلنين أنّ هذه الوقفة هي بدايةٌ لأخذ الحق، متعهدين بملاحقة الجناة. رثاءهم يتلاشى في الهواء، لا يتجاوز حدود شفاههم، لا يصلني، أمشي بينهم في دوامة، محاطةً بفقاعةٍ ولا أشعر بما يجب علي أنْ أشعر.

عبد اللّه يصدُّ بلطفٍ كلّ من يحاول إيقافي للحديث معي أو سؤالي عن الحادثة، يحميني من أسئلتهم الفجّة، أو تعاطفهم المشوب بالشفقة، يُدرك أنّ في هذا المقام، هُناك أشياءُ لا تُقال، لا يمكنُ التصريح بها علنًا حتى لمنصةٍ رسمية، عبد اللّه مهتمٌ لأجلي، عجيب.. واللّهِ إنّه أكثر من لطيف! العواطفُ من حولي تتدفق كنهرٍ جارٍ، وأنا أقفُ على ضفته، أراقب فحسب.

***

بمباركةِ الحشدِ الكبير من مسؤولين وحقوقيين، تمّ تخليصُ الجنازةِ بأسرعَ مما توقعت، وفدٌ من الأطباء والمهتمين تابع تخليصَ إجراءات الجثمان في مشرحة مستشفى السلمانية الطبي، التقاريرُ الطبيّةُ الرسميّةُ واضحةٌ لا لبس فيها، سياراتٌ كثيرة تُقِلُّنا، سياراتُ الشرطة البيضاءُ ذاتُ

الخط الأزرق العريض تتقدم، سيارةُ الإسعاف تحملُ التابوت إلى مثواه الأخير، انطلاقًا من ساحة المطار، مرورًا بالمشرحةِ وانتهاءً بالمقبرة.

في المقبرة، أيضًا، جموعٌ غفيرةٌ ترفع الأعلام، ولافتاتٍ تحمل عبارات مختلفة، الجميعُ مهتمٌ بالقضية، رجالٌ ونساءٌ من مختلف الأعمار، والجنسيات، جاؤوا ليعبّروا عن تضامنهم واحتجاجهم، كلّ منهم يحملُ قطعةً مكسورةً في قلبه من بقايا روحِ جُمان.

على مصاطبَ إسمنتيّة مظللة جلسنا ننتظر انتهاء إجراءات الغُسل والتكفين، عبد الله يتحدثُ مع بعض النسوة، يشير ناحيتي:

ـ هذهِ أمّها، أنا خالها.

ثمّ، رفعَ سبابته ناحية لافتةٍ سوداء كُتب عليها دعاء زيارة القبور، وأشار إلى حجرٍ أسفلها يجلس عليه شخصٌ متدثرٌ بشماغٍ أحمرٍ لم أميّزه أوّل الأمر، قال:

ـ هذا عبد الحي أبوها.. كِلنا نعطيكم الإذن في تغسيل الجنازة

حليمة تسألني:

ـ عصام بيحضر التشييع؟

أشيحُ بنظري بعيدًا إلى لا شيء، معتقدةً أنّ الرد وصل إليها بلفتةِ نظر.

نهاية تشرين الثاني، شمسُ البحرين متسلطة، وأنا للتو أقبلتُ من بلدٍ ثلجي بصقيعٍ يخترقُ العظام، أذوبُ تحت وهجها القائظ.

لا غرابة من تحملي وانتظاري، فأنا أمُّ عروسٍ وحيدةٌ في كمدٍ متدفق، الحشود تتوافد بلا توقف، كأنّ البحرين بأكملها جاءت لتشهدَ يومًا يمنحني وسامًا وشأنًا.

ذكر عبد الله، أنّه تمّ تعميم موعد التشييع في كافة المواقعِ الإلكترونيةِ المهتمة والنشرات ومجموعات الواتساب في الثالثة مساءً، لمْ يتبقَّ سوى دقائق معدودة. تخاطبني إحداهنّ:

ـ خلصنا التغسيل والتكفين.. تگدرين تودعينها دگايگ گبل التشييع.

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

أمسكتني حليمة،

تقدمتُ معها بخطواتٍ ثقيلة.

يتباطأ الزمن حولي، لحظاتٌ تتآمر عليّ.

تطيلُ المسافةَ القصيرة من المقبرةِ حتى مغتسل النساء.

بشق الأنفُسِ وصلنا، غرفتان: واحدةٌ لانتظار المكلومين، والأخرى للموتى.

بصرخةٍ مكتومةٍ همستُ دون أنْ ألتفت:

ـ خليني وياها شوي.

ارتبكَتْ حليمة، تراجعَتْ بحذرٍ، أفهم؛ هي تخشى انهيار جبَلِ الصبرِ داخلي.

وقفتُ أمام بابِ الغرفة، أخذتُ نفسًا عميقًا، علّه يصل إلى رئتي.

فتحتُ الباب بيدٍ ترتجف، بصري خافتٌ مكسور، بالكادِ أرى تفاصيل الغرفة: باردةٌ، مغلفةٌ ببلاطٍ أبيضٍ، مفعمةٌ بالهدوء، مشبعةٌ برائحةِ كافور، في وسطِ الغرفة، جُمان تتمدّد على دكّةٍ إسمنتية، مُلتحفةٌ بالبياض، وراحةٌ أبديةٌ تُلبسها.

أقتربُ كمن يسير في حلمٍ ثقيل، أشعر ببعضي ينسحبُ مني مع كلِّ خُطوة، المسافةُ بيني وبينها.. ألفُ زمن يمتدُّ، يرفضُ أنْ ينكمش ليمنحني لحظة الاستيعاب والفهم.

رجفةٌ خفيّةٌ تتصاعدُ من أطرافي حتى صدري.

يبدو أنّ الفقد حين يبلغ ذروته، لا يكسرنا فقط؛ بل ينحتنا من وجعٍ آخر.

ظننتُ أنني أعرف معنى الخسارة حين جربتُ موت أمي؛ كيف أشرح لها الآن أنّ فقد الضنى لا يكسر القلب فحسب، هو يلتفُّ كأفعى حول الرغبة في الحياة، يعتصرها حتى تبهت، ثم تتلاشى.

اقتربتُ منّها بوجلٍ وحذر.

أخشى أنْ أوقظها، كأني ما زلتُ أملكُ فرصةً لإيقاظها.

لإعادتها إليّ، من موت قد يكون قابلا للنقض.

أتأملها.. وجهها الشاحب مكشوف، شفتاها الممتلئتان بلا لون، زادها ارتخاء التكفين صمتًا على طبعها.

هل وصلتُ إليكِ جُمانتي؟ هل هذه أنتِ؟

گومي جُمان. تعالي احضنيني، خلي راسج على صدري، ريحي گلبج على كتفي.. گوليليي كلشي.

أمدُّ يدي، أمسحُ خدّيها، لا أثرَ للدمِ في وجهها. لا نفسَ يصعدُ ولا يهبط، لا روح، لا شيء ينبض.

دموعٌ تغرقني في السؤال ذاته: لماذا يا روح أمّك؟

مَنْ جعلكِ خصمًا لي؟

ألم تفكّري للحظة بي؟ كم كنتُ أحتاجكِ؟ كم كنتُ أعيش لأجلكِ؟

لا أحتاج وقتًا طويلًا لأفرغَ ما في قلبي من أسئلةٍ، هو سؤالٌ واحدٌ يكفي:

أكنتِ تكرهينني إلى هذا الحد؟

قومي، قبّلي رأسي كما كنتُ أرجو، قولي لي إنكِ ما زلتِ تحبينني أكثر مما أتخيل، أكثر مما كنتُ أتمنى، أكثر مما حييتُ لأجله.

عتبي عليكِ مديد، كأنكِ أخذتِ قلبي ومضيتِ، ونسيتِ أن تبرّري.

عامٌ، وشهران، وأربعة أيام، وكلّ دقيقة فيها كانت موتًا صغيرًا.

ماذا جنيتُ بحقكِ حتى أستحق قسوتك؟

كنتُ أرى العالم كلّه فيكِ، كنتِ كلّ ما أملك، كيف لمْ تثقي بي؟

كيف رأيتِني أصغر من أن أحتويكِ؟

حرمتِني قربكِ، حرمتني حتى حقي في الحفاظ عليكِ، وإنقاذكِ.

أعتب على رحيلكِ المبكر..

أنا المقتولةُ يا جُمان، لا أنتِ، وأنتِ من قتلني.

لكنّني سامحتكِ،

سامحتكِ على ما أعرف، وما لا أعرف، ولم أجرؤ يومًا على السؤال عنه.

سامحتكِ على أنكِ تركتِني أقف هناك، دون أن تمنحيني فرصةً للنجاة بكِ.

نظرتُ إليها للمرةِ الأخيرة،

قبّلتُها طويلًا ومضيتُ أتعثرُ بعتمتي.

خرجتُ من المغتسل متشبثةً بجدرانه، وحدها الجدران من تسندني لتُبقي قدمَيَّ ثابتتين، ألمح شبحي في باب معدني، منتفخةَ العينين، مُحمرةَ الوجه. أشعر بالدوارُ في صدغي، أنتفضُ وقلبي ينزفُ نزفًا لا يُرى.

عبد الله عند الباب، عيناهُ محمّلتان بأسئلةٍ لا أملكُ لها إجابة، ضمّني وهو يبكي، دفعني بكاؤه للبكاء، بكينا معًا، كِل منا ينعى فقيده.

***

في الجنازة، تحتشد جموعٌ غفيرةٌ، الأرضُ تئنُ تحت أقدامهم، يحملونَ نعشكِ على أكتافهم بوجوهٍ لا تُخطئها المأساة. تصدح أصواتهم للسماء: «لا إله إلّا الله» كلّ شيء يخصكِ؛ لافتات، صور، عبارات.. جعلت اسمكِ قضية. موتكِ يا جُمان، لم يكن عاديًا... أشعلَ نيرانًا، ألهبَ أرواحًا.. أصواتهم خليطٌ بين حزنٍ وغضبٍ، بين دعاءٍ، ورثاءٍ، وبكاءٍ يُشبه الأنين.

حين وصلنا إلى مثواك الأخير، كان بقعةً غنّاءَ، مقامٌ يعجُ بالزهورِ والشتلات، نثروا الورود على طولك، وأصائص الزرع تطوق القبر، قبرُك يتوّسط جدك وجدتك، وددتُ لو أنّني أنكمش بما يكفي، ليسع لي الترابِ بينكم، عَلِّي أرتوي من سكونٍ طالما جفّفَ قلبي، علِّي أحميكِ من بُعدكِ عني من جديد.

تجلس حولك النساءُ كأغصانِ شجرةٍ تنحني لحزنها، كلُّ واحدةٍ منهن تُودعكِ بطريقتها؛ صوتُ نحيبٍ من هنا، آياتٌ تُتلى من هناك. أسمعُ كلَّ تنهيدة، وأبقى في عزلتي بما تبقى مني معك.

***

كلّ الذين ظننتَهم رمادًا، يكمُنون في اللاوعي، كجمرةٍ يغشاها الرماد. يظهرون فجأة، كأسماء فوق بطاقات الورد، بطاقات تعزية بعضها يلدغ بخبث.

الاسم، علي إبراهيم، والوجع، قديمٌ لا يُبلى. لم أحتج وقتًا لأتأكد، أعلمُ من قبل أنّ جرحًا حَمَلتهُ البطاقة أكبرُ من أنْ يُشفى.

علي؛ أول انكسار في علاقتي بكِ، كم مرّةً خُدعنا بجمال الأشياء قبل أنْ نكتشف أنّها محضُ قناعٍ هشٍّ يغطي عطبًا فاسدًا في جذورها؟ كم مرّة ألقى بنا القلب في متاهاتِ وهمٍ سخيف، ظنًّا منه أنّ العطر دليل طهارة، وأنّ اللّون مؤشر للحياة؟

في تلك اللحظة، لم أخجل من نظراتهن. الباقةُ في يدي، الورود بين أصابعي. رفعتُها لأعلى، وألقيت بها أرضًا. سحقتها تحت قدمي بكلّ ما في داخلي من غضب. تقدمتُ نحو صندوق القمامة، بأصابعَ مرتعشةٍ مزقت البطاقة، قطعتها إلى شظايا، أمزق عاهةً من حياتك وحياتي، من كلِّ شيء.

أردتُ أنْ أُعلن أنّ هذه القذارة لا مقرَّ لها قرب طهرك.

***

أُعلِنَ عن بدء العزاء!

ليلةَ الجمعة صلاةُ الوحشة، ووحشةٌ لا يغسلها وضوء.

رفقةُ حليمةَ أعودُ إلى داري، خاليةً يديّ، بلا جُمان ولا أخويها.

أدخلُ البيت، فأفاجأ بأنه لم يُهدم، لم يُعَدّ بناؤه، فقط ترمّمَ جزءٌ من

مجلسُ العائلة والفِناء الكبير، أما جانبُ دارِنا فبقيَ كما تركتهُ تمامًا. كنتُ قد رمّمتهُ وغيرتُ أثاثهُ قبلَ عشرِ سنواتٍ، وجدتهُ كما هو، لم يتغيّر، المدخلُ ذاته، ممرٌّ ضيّقٌ يؤدي إلى صالةٍ واسعةٍ متصلةٍ بمطبخٍ مفتوحٍ عليها، غرفتي نومٍ، وغرفةٍ ثالثةٍ لوسائلي التعليمية ولتدريس الطلابِ أحيانًا. الأثاثُ على حالهِ، ستارةُ الصالةِ مقطوعةٌ، مائلةٌ نحوَ اليسار، أدواتُ المطبخ كما تركتها، صورتُنا العائلية، التي تجمعني وأنا طفلةٌ بأمي وأبي وخالي عبد الكريم وأبنائه عبير وعامر وعصام في باحةِ بيتِ القيمرية، ظلّت معلقةً على حائطِ الصالة، سألت:

ـ يعني ما هدّم البيت ولا باعه؟

ـ أبوي تغيّر وايد، من مات محمد أخوي صار واحد ثاني.

أفرغتُ حقيبتي الصغيرة الخالية من كلّ شيء إلّا الوجع، وأنا أتهيأ للاستحمام أفتّشُ عن فوطةٍ فلا أجد:

ـ اللّه يرحمه، وينها؟ شكلي نسيتها.

تبادر بحماسٍ:

ـ المجمع گريب، بروح أشتري لج فوطة يديدة بسرعة.

قبل أن تخرج، أضافت:

ـ لولوة.. يمكن آنا ما گلت لج أخوي محمد مات بجرعة زايدة. هالموضوع كسر أبوي واايد، گلب حاله.. حسـ.

انفلتت الكلمات من بين شفتي:

ـ عگب شنو؟ عگب ما آنا ضعت وضيّعت معاي بنتي وعيالي؟ كان لازم يفگد ضناه عشان يحس؟

ضمتني:

ـ اهدئي، حبيبتي. أدري بالحركة اللي فيج، بس ذكري اللّه.. عفا اللّه عما سلف.

عما سلف؟ آه.. ديدن السلاطين!

بِهذه البساطة؟ ألمٌ متوغلٌ في الروح منذُ باعني لصديقه، يمكنه أن يتبخر بكلمة. أيّ عبثٍ هذا؟ أطفالٌ ضاعوا، أرواحٌ اغتيلت، أحلامٌ قُطِّعَت والآن؟ يقف الظالمُ يمد يدَهُ وفي قناعتهِ، أن الصفح حقٌّ مكتسب له وحده، لا قرار يؤخَذ منّا، نحنُ المكلومون بالشوك والوجع.

أيّ عفوٍ؟! أن أمحو عذابي، وعذاب أمي ومرضها.. وحرمانها هي وطفلتها من أرثِ زوجها؟ أن أصفح، يعني أن أرتقي فوق الألم، أن أرتدي درع القوة لأمحو ماضيًا ملطخًا بالقهر والدموع.

كيف أغفرُ وأنا ممزقةٌ بين رغبةِ سلامٍ ورغبة انتقام؟

الغفرانُ قوة تتطلب مساحةً من السلام، سلامٍ لا أعرف كيف أصل إليه وأنا ما زلتُ أنزفُ من جروحٍ لم تلتئم.

لا أقدر يا حليمة، أنا أضعف من أن أصفح هكذا بسهولة. تضمني، وتبكي معي كلّ الخسارات.

***

هناك موتٌ يمرّ خفيفًا كزفرة، يُبكى لحظة ويُنسى، وموتٌ آخر يندسّ في جدران المدينة، موت جُمان لم يكن لي وحدي، كان حزنًا مشاعًا، مرثيةً جماعية. جاؤوا بحزنٍ يشبه الغصةَ في الحلق، كأنهم يقتسمون الحزن معي.

هم يبحثون عن عزاءٍ لهم كما أبحث أنا عن عزاءٍ يكفيني.

مصابها ليسَ قصةً على شاشة، أو موقع تواصل اجتماعي، هو وجعٌ شخصيّ لهم، هي ابنتهم أيضًا، أختهم، قريبتهم، لم يلتقوا بها يومًا؛ لكنّهم فقدوها.

في الصفوفِ الأولى، وجوهٌ من الماضي جمعها الحزن والذهول: طفولةٌ، دراسةٌ، تدريسٌ... وكلُّ ما كان عابرًا، معلّماتُ جُمانَ جئنَ بأعينٍ باكية. كلُّ واحدةٍ تحملُ لها ذِكرى، ضِحكةً، اجتهادًا، أثرًا لا يُمحى.

أستاذة انتصار... ضَمّتني، كأنها تُمسكُ بروحي.

زميلاتُ الدراسةِ والتدريسِ. قريباتُ أبي، الغائباتُ عن حياتي، الحاضراتُ في موتِها. اتصل بي الكثير... من البحرين، من خارج البحرين، من أماكن لم أعد أميزها. اتصل خالي كريم من الشام، عامر وابنته ندى، صديقة جُمان.

جاء عبد الحي. وجهٌ آخر من الماضي ظهر أخيرًا، بعد كلّ هذه السنوات.

جاء يعزّيني في جُمان... كما يقف الغريب في جنازة لا تخصه. رجلٌ لم يُدرك الأبوة إلا حين أصبحت ابنته تحت التراب؛ فالأموات لا يحتاجون نفقات. وقف أمامي، يتوقّع منّي أن أجد في وجوده عزاءً، أن أشعر لحظةً بأنه أب، بأنه لم يكن عبئًا ثقيلًا على ذاكرتي.

لم يُكلّف نفسه يومًا عناء رؤيتها. لم يسأل عنها وهي تكبر، لم يسأل عنها حين انتُزِعت مني، لم يسأل عنها حين احتاجت يدًا أخرى تسندها قبل أن تسقط.

لم يكن غيابه إلا تهرّبًا من النفقة، وتذرّعًا بحججٍ رخيصة، كفصله من العمل؛ وكأنّ الوظيفة شرط الأبوة. في طفولتها، لم يتوقف عن التهديد. كان يذكّرني كلما استطاع، بأنّ زواجي سيجعلني أخسرها بسهولة، وأنّ القانون معه، وأنّه قادر على استعادتها متى شاء.

بقي تهديده غيمة سوداء بين عقلي وقلبي، بين خوفي وحريتي، بين رغبتي في الهروب منه وخشيتي من فقدان ابنتي.

رحلت الآن.

رحلت دون أن يأخذها، دون أن يُشهرها سيفًا في وجهي.

لم يعد يملك شيئًا يهددني به.

لم يعد في يده شيءٌ مني.

لقد جاء متأخرًا جدًا على أن يكون أبًا.

متأخرًا حتى على أن يكون أيّ شيء.

ابنته رحلت... وخلفها صندوقٌ أسود لا يُفتح، وألف سؤال.

***

انهيار جبل الصبر

اشتعلتْ مواقع التواصل بمقاطعَ من مراسيم التشييع والدفن، بمقالاتٍ عديدة بشأن القضية، وتضامنٍ شعبي كبير من البحرين والسويد، تظاهرات عديدة تندد بالثأر والقصاص، تزامن مع مقاطع جديدة لعصام، لم يكن الرجل نفسه الذي اتصل منهارًا بعد موت جُمان وتحدث إلى عبير. أصبح كيانًا غاضبًا، رجلًا لم يعد يملك ما يخسره.

«إنتو سرقتوا مني كلشي. قدامكن فرصة أخيرة، يا بترجعولي ولادي، يا محاتحلموا بالراحة!»

ملابس سوداء، قسماتٌ حادة، عينان تتوعدان، صوتٌ يزأر. عاد الجميع يتحدثون عنه، وهو لا يتحدث حصرًا إلى الكاميرات، ربما يتحدث إليّ أيضًا. يضعني أمام خيار لم أكن مستعدة لاتخاذه.

حين اتصل في آخر أيام العزاء من رقمٍ مجهول كالعادة. لم يكن بي طاقة للظنون أو للهروب، أجبت.. سمعتُ صوته، وكأنه ليس أقرب الناس إلى جُمان. قالها ببرودٍ:

ـ العمر إلك.

وأنا لا أرغب في المزيد من العمر.

ـ شلونك لولو؟

ألزم صمتي.

حزنٌ أكبر من قدرتي على الرد، غيرَ أنّ الغضب أثقل من أنْ أدفنه في صدري. كلّ غصّةٍ بلعتها خرجت دُفعةً واحدة:

ـ عصام، طلگني! ما أبي أسمع صوتك، ما أبي أشوفك، انتهى كلشي بينا!

شيءٌ وحيدٌ كنتُ واثقة منه؟ أنني تعبت.. وصبري قد نفد.

صبري ليس مطاطًا يتمدد إلى ما لا نهاية، أو كنزًا لا يفنى. الصبرُ يُستَهلَك، يُستنزَف حتى آخر قطرة، يجفُ من القلب حتى يتصدّع.

أنا صبرتُ، أُلجمتُ صراخًا في داخلي، وابتلعتُ الخذلان مرّة بعد مرّة، تعاطيت جرعاتٍ سامة من القهر، تجرعتها ببطء معتقدةً أنني سأنجو.

وهأنذا، قد وصلت.

انفجرتُ بالبكاء، كلّ الدموع التي حبستها شهورًا، ربما سنوات، انهمرت دُفعةً واحدة. بكيت بحرقة:

ـ ببالك ما كنت أدري بعلاقتك مع إيستر من البداية؟! ببالك ما كنت أدري أنها ما تفارگك طول اليوم معاك بالمطعم؟ اتحملت. سكت، سكوتي مو ضعف، شوية أمل، شوية وهم إن ممكن ترجعلي.. بس إنت شنو سويت؟ تاخذها وتهرب معاها بأقسى وقت كنت أمر فيه؟ وقت كنت بأشد الحاجة استند عليك؟!

صمته على الطرف الآخر يحرقني أكثر، مرآة يعكس وجعي ليضاعفه.

ـ وبعدين شنو؟ توسلت لحتى ترجع، توسلت ورجيتك وما عاد رجعت.

شهقتُ بالبكاء:

ـ ماتت جُمان؟! ماتت وإنته لساتك مع عشيگتك! شنو تبي مني بعد؟! كافي! طلگني، دمرتني عصام.. إنته دمرتني.. إيه إنته دمرتني.

يداي ترتعشان، جسدي كله ينتفض من الغضب... من الوجع:

ـ اسمع عصام. كلشي ممكن أعدّيه، ممكن أسامح فيه، لو أكتشف إنك مصاحب بنات بگد شعر راسك.. بنات بعدد ما يستوعبه العگل...بسامح، بغفر.. برجعلك... بس إلا بنتي!

في غرفتي بمدينة عيسى فجّرتُ قنبلة، انفجر عصام في الجهة الأخرى من العالم، صوته صار صاعقًا، غاضبًا، مليئًا بالشرر، أيقظتُ فيه شيئًا لم يكن مستعدًا لمواجهته:

ـ إنتي شو عم بتخبصي ها؟! شو هالحكي الفاضي؟

ـ بس ولاااا! بيكفي، حاجة أوهام مالها معنى!

ـ أوعك تصدقي هل الكلام أو تفكري فيه مرة تانية، أنا ماني ابن حرام.. أنا ماني ندل، ماني ندل حتى أعمل هالشي.

ـ لا لا لا إنتي أكيد جنيتي!

ـ أنا؟! جُمان؟!

ـ أنا ماني مصدق إني عم بسمع هالحكي منك.

يصرخ... يلهث... الغضب يقطع أنفاسه.

وأنا مجنونة بالحزن، بالكراهية، بالغيرة، بالشك، بأسئلةٍ لا أجرؤ حتى على مواجهتها مع ذاتي، بالحقيقة المخفيّة.

فجأة، تبدّل صوته... انكمش، يبدو أنّ هناك شيئًا أكثر إلحاحًا.

التقط أنفاسه واستطرد بنبرةٍ مختلفة، طارئة:

ـ لولو ركزي معي، أنا ما عندي وقت هلأ، مشان اللّه ركزي معي منيح.

أشهق وصدى شهقاتي تخنقني..

ـ حجزتلك تذكرة بعد يومين مشان تروحي ع السويد، تفضي البيت من كل الأغراض المهمة تبعك وتبع لولاد. أهم شي لا تنسي الجوازات، المستندات، التقارير المهمة. تاخذي كلشي تحتاجيه، تسكري البيت، تتصلي بالمحامي وتروحي إلو، شنتاية جُمان وأغراضها اللي سلمهم إلو السوسيال. تاخذيهم، وتسلميه مفتاح البيت. رح يسلمك شيك، مشان تصرفيه. حجزتلك ليلة بفندق قريب من المطار لأنو رح تسافري الفجر مباشرة ع تركيا، تروحي هناك، مشان تستلمي الولاد.. ولادنا يوسف وكريم عم يستنوكي.

يتابع:

ـ رح أبعتلك التكت وكل تفاصيل الحجوزات وموعد التسليم على الإيميل. مشان اللّه اوثقي فيني لآخر مرة.. وهدّي.. وديري بالك ع حالك.

ثمّ، بعد لحظة... بعد لحظة ثقيلة من احتضارٍ بطيء، قال بصوتٍ خافت:

ـ على فكرة. بحبك لولو.. ولا بحياتي خنتك.

وانتهت المكالمة.

الآن، أُجهّزُ حقيبتي كما طلب مني، بداخلي أصواتٌ تصرخ بلا هوادة، يداي ترتجفان فوق حقيبة بالكاد تتسع لكلِّ هذا الثقل.

خضتُ حربًا شرسة، لم أعد المرأة نفسها قبل هذه الحرب، أنا الآن أمٌّ ستُشعِل الأرض تحت أقدام من سلبوا أطفالها، مستعدةٌ للقتال والمواجهة وإن كان خصمي أقوى قانون في هذا العالم.

الآن، أستعدُّ للرحيل، لستُ هاربة، في داخلي بركانٌ، في أعماقي وعدٌ محفورٌ: أن أعود بحقي المسلوب.. أو أفنى في المعركة.

***

صفقة في العتمة

عدتُ إليها من جديد؛ لا كما وطئت هذا البلد يومًا، لا عروسًا بعينين مبللتين بالحُلم، ولا أمًّا تشدّ طفلها إلى صدرها كتعويذة نجاة... عدتُ كخارجة من زنزانة العمر، أفتح الباب للمرة الأخيرة دون رغبة في الالتفات.

وصلتُ السويد دون أن أخبر أحدًا. لم تكن هذه رحلة عادية، ولا عودة إلى منزلٍ كان يومًا لنا، إنها رحلة مُلغمة، من المحتمل أنني قد لا أعود منها. كنت هناك، لا بصفتي أمًّا تلمّ شمل عائلتها؛ أتيتُ كمن ينقّب بين أنقاض حياته، يبحث عمّا يستحق الإنقاذ، يتخلص مما يجب أن يتركه في الرماد.

شعرتُ بالبرد يخترق عظامي، برد الشتاء، وبرد ذكريات سكنت هذه الزوايا.

دخلتُ الشقة. الرائحة ذاتها، رغم أنّ المكان أصبح خاويًا، بلا روح، بلا ضحكات جُمان، بلا أصوات أطفالي. جدرانٌ أخرسها الحزن، تحتضر مثلي.

فتحت الخزانة، سحبت الحقائب، بدأت بتفريغ ما يهمني، ما أحتاج أن أحمله معي. جوازات سفر، مستندات، تقارير طبية، شهادات ميلاد.

الأوراق التي تثبت أنني ما زلتُ أمهم. لم تكن كافية لإنقاذهم سابقًا، ربما الآن.. الآن يمكنها أن تعيدهم إليّ.

أمسكتُ الصور...

أتأمّل جُمان وهي طفلة، يدُها في يدي، وابتسامةٌ كالضوء. وضعتها في جيبي قرب القلب. أخذتُ ما يكفي من الملابس. أشحتُ بصري عن ثوبها الأخير. لم أُستطع لمسه. لستُ بحاجةٍ لثقلٍ إضافي.

تركتُ كل شيء: ملابسَ كريم الرضيع وسريره، أدواتِ النفاس، طاولة الطعام، كتب ألعاب، قصاصاتٍ هاربةً من ذاكرتي. بقايا حياةٍ لا أريد أن تُرافقني.

غادرتُ الشقة، ومضيتُ نحو مكتب المحامي. حيثُ حقيبة جُمان. قالوا إنها تحوي ما لم تعُد تحتاجه. ظننتُ أنني سأجد ثوبًا صغيرًا، دميةً بائسة، دفترًا بخربشاتٍ طفولية. حين فتح المحامي الحقيبة أمامي، شعرتُ بأنني أسقط من جديد في بئرٍ عميقٍ من الوجع.

علبة زانكس في زاوية الحقيبة، عبوات فارغة وأخرى شبه ممتلئة. أوراق وبطاقات مبعثرة وثلاث دفاتر، تقرير طبي يذكرُ أنها تحت رعاية نفسية؛ لكن لا تفاصيل واضحة. وشاحها المفضل يفوح بعطرٍ لم يعد له جسد يحمله.

أمسكتُ بالوشاح، ضغطته على وجهي، أستنشق ما تبقّى من أنفاسها، قبل أن يتلاشى كلّ شيء. أخبرني المحامي أنّ المعتدي خلف القضبان، بانتظار محاكمةٍ لا مفرّ فيها من القصاص، فالعدالة، وإن تأخرت، لا تنام.

ـ هل هناك شيء آخر؟ يسألني بنبرة رسمية.

ـ لا. رغم أنّ الحقيبة التي أمامنا لا تحتوي على بقايا إنسان، مجرد ممتلكات بلا قيمة. ناولني الشيك، لم أهتم بقراءته، لم أهتم بالمبلغ المكتوب عليه، ورقة لا تزن شيئًا أمام كفة الخسارات الثقيلة في هذا البلد.

ـ هذا مفتاح الشقة، لم يعد لي فيها شيء. وضعته على مكتبه، استدرت ورحلت.

إلى تركيا، حيث قال عصام إنني سأراهم.

لكنّه لم يقل لماذا هناك؟

ولماذا ليس هنا؟

***

كلُّ شيءٍ مُعدّ بعناية: تذاكر، فندق، سائقٌ ينتظرني عند البوابة. سلّمتُه الحقائب، وجلست خلف الزجاج، المدن الرمادية تتوارى. كأنني أعبرُ بلا جهة، وطريق بلا عودة قادمة.

السائق صامتٌ، محترفٌ، يدرك أنني لا أحتاج إلى كلماتٍ إضافية. أوصلني إلى الفندق، حيث يُفترض أن أقيم إلى حين الموعد.

كلمة واحدة كتبها عصام في البريد، لم يذكر شيئًا آخر. لم يذكر أيّة تفاصيل حول كيفية اللقاء، أو من سيسلمني الأطفال، إن كان سيحضر بنفسه أم لا. موعدٌ، ومكانٌ سيصلني لاحقًا فقط.

ـ أنا هنا طوال اليوم، سأنتظرك عند المدخل الساعة الخامسة مساءً.

هززتُ رأسي... بلا كلمة.

غادرتُ السيارة بخطى مثقلة، في الغرفة، جلستُ على السرير. أنا وحقيبة جُمان والانتظار.

الزمن يتباطأ، كأنه يعاقبني على كلّ شيء أضعته..

الخامسة تقترب. والمصير يزحف على بعد لحظات، ببطءٍ يثير الذعر.

***

القانون السويدي أقوى من توسلاتنا، من وجعنا، جدارٌ صلب لا يلين. قاتل عصام بالطريقة التي رأى أنها مناسبة، لم يخبرني، أو يشاورني، مضى في حربٍ تُخاض في العتمة لا في قاعات المحاكم، في أماكنَ لا يُسمع فيها سوى صوت الرصاص والمساومات القذرة.

أشباحٌ من ماضيه عادت: أبو قتادة الشامي، أمجد أبو عمر، كنتُ أظنّها دُفنت مع مرور السنين، لكنها كانت تنتظر.

اتصل بالحكومة:

ـ إيستر في قبضة الفصائل، إن أردتم عودتها أعيدوا أطفالي لأمهم.

لم يتوقّع أحد أن يتحوّل لاجئٌ مطارد إلى رجلٍ يُهدد دولة.

«السويد لا تفاوض الإرهابيين، هكذا قالوا». لكنهم تحرّكوا.

هزّهم اختطاف مواطنة يهودية، والفضيحة المحتملة، بدأت المفاوضات، وتدخّلت جهات أخرى دولية، ومنظمات تعتنق ازدواجية المعايير والقيم. لم يكن عصام يمزح: «أمامكم شهر، بعدها تُعدَم إيستر».

مفاوضاتٍ مريرة تجرى، حسابات سياسية متشابكة، وساعات من الشدّ والجذب، ثم تمت الصفقة.

مقامرة على حياة بشر، دُفع ثمنها بالخوف والدم وانتظارٍ ينهش الأعصاب.

نُفِّذت عملية التبادل بتنسيقٍ بين الحكومة السويدية، والمخابرات التركية، والأمم المتحدة، وفصائل مسلّحة بقيادة أبو قتادة الشامي في إدلب.

لم تنشر تفاصيل، فما يُدار خلف الكواليس أكبر من قصة طفلين حرما من أمهما. لقد كانت صفقة نفوذ، اختبار قوى، تبادل أوراق في عالمٍ لا يعترف إلّا بالمصالح، أما الأرواح، فمجرد هامش.

***

على أحد المعابر الحدودية التركية، كانت المراحل الأخيرة تجري بصمت. على الجانب الأول، كنتُ أنا. حولي رجالٌ بستراتٍ رسميّة، بلا وجوه، ملامحهم محايدة، كأنهم حراس لمسرحية هزلية لم أكتبها، ولم أطلب أن أكون بطلتها.

أمامي، على بُعد خمسين خطوة، الطفولة المسلوبة تنتظر.

يوسف، وكريم.

كانا هناك، بجسدين مرتجفين، وملامح شاحبة.

كنتُ أراهما، وأراهما فقط. لم يعد هناك عالمٌ خارج تلك الدائرة الصغيرة التي تفصلني عنهما. كلّ شيء تلاشى. أنا وهما فقط.

لوهلةٍ، لمحتُ في عين يوسف نظرةً لم أفهمها. يحدّق بي مستكشفًا، نظرة توحي بأنه لم يعد يميّزني.

على الجانب الآخر، كانت امرأةٌ أخرى تُسلَّم.. امرأةٌ سويدية، مغطاة الرأس، تُدفع نحو المسؤولين بصمت. لم تلتفت.

لم تنظر ناحيتي. ربما تدرك أنّ قصتها هنا قد انتهت، كما انتهت أشياءُ كثيرةٌ قبلها. عصام لم يكتفِ بالتهديد. نفذ. لم يكن هنا؛ غير أنّ كلّ شيء يحملُ بصمته، لقد كان في كلِّ شيء... في التفاصيل كلّها.

في الطفلين الواقفين هناك، يحملان اسمه وخسارته. إرثٌ ثقيل، لم ينجح في حمايته.

وفي إيستر... شاهدته الصامتة. رأت اختياراته، هروبه، والآن، لم تَعد سوى الثمن الأخير الذي يدفعه... ليعيد طفليه إلى أمهما، ليعيد ترتيب الفوضى، أو لتُعاد الأمور ولو جزئيًا إلى نصابها. لا يهمّني إن كانت عشيقةً، هرب معها حين ضاق كلّ شيء، أم أنها وقعت في الفخ، تحوّلت من امرأةٍ وثقت به إلى ورقة في لعبته. أو ربما كانت شيئًا آخر. تلك الأسئلة لم تَعُد تعنيني. ولا الإجابات تلزمني.

هو مشى الطريق حتى نهايته... لكنه لم يصل.

وأنا مكسورةٌ بما يكفي، لكنني نجوت.

كنتُ أظفرُ بطِفلَيّ وأعود إلى وطني. وهذا هو كلّ ما يهمني الآن.

مشهدٌ غريبٌ، خليطٌ بين الانتصار والانكسار.

لم تكن الصفقة خيارًا، كانت ثمنًا مشتركًا لحروبٍ شتى.

حروبٌ لا تمنح لأحدٍ نصرًا كاملاً، ولا أحدَ خرج منها نقيًا.

***

جبهة النجاة

سقط نظام الأسد.

تزامنًا مع هذا الخبر هبطت الطائرة في مطار البحرين الدولي.

حين لامست عجلات الطائرة المدرج، دمشق تخرجُ من تحت الأنقاض، تهزُّ غبارَ عقودٍ طويلةٍ عن كتفيها، تفتحُ عينيها على وطنٍ تحرر أخيرًا من قبضة الموت. في داخلي... شيءٌ يرتج... مع ارتجاج منبه هاتفي بعشرات الرسائل..

أفتح المحطة الإخبارية، الخبر يمرّ في الشريط السفليّ:

«سقوط النظام. المعارضة تدخل القصر الرئاسي.»

دمشق...

المدينة التي لم تسقط من قلبي، تسقط الآن في نشرة أخبار.

لا صوت. لا دم. لا تمهيد.

جملة واحدة... تنهي عقودًا من الخوف. أحدهم على الشاشة يبتسم، امرأة تصرخ، راية ترتفع، أيدي تلوّح، يتحرر الوطن على الهواء، ولا أحد يضمن إعادة البث. في ساحة العباسيين، يهتفون...

وأنا في مقعد «A 18» عند جناح الطائرة.

أحاول أن أستوعب سقوطًا كنتُ أتمناه... ثم نسيته.

أسترجع وجه عصام، ملامح رجلٍ قال لي مرّة:

ـ الحرية؟ بدها قلب حديد، وأنا طري.

هل صار قلبه أصلب؟ هل يعود؟

أم أن التحرير لا يشمل المنفيين في قلوبهم؟

أطفالٌ يعبرون الحدود عائدين إلى وطنٍ لم يروه إلّا في حكايات أهاليهم، يسألون ببراءة كما لو أنّ الاسم نفسه أسطورةٌ قبل اليوم: أهذهِ دمشق؟

وأنا هنا، في البحرين.

في مدينة عيسى، حيث بدأتُ. مدينةٌ سقَتني الحليب والأمان، في حضنِ أبٍ نبيل وأمّ مترفة بالحنان.

بعد كلّ شيء، بعد رحلاتٍ لم تشبه الرحلات، بحثٌ مذعور عن زاويةٍ آمنة، عن وطنٍ لا يخون، عن أرضٍ لا تبتلع من يسير عليها. بعد مدنٍ مررت بها ولم تكن لي، بعد بيوتٍ سكنتها ولم تسكنني، بعد طرقٍ سلكتها ولم توصلني إلّا إلى مزيدٍ من الضياع، أخيرًا، أحطُّ هنا.

أُثبّتُ قدمَيَّ على أرضٍ أعرفها، أرضٍ لم تأخذ مني أطفالي كما فعلَتْ أماكنُ أخرى، لم تسرقني من نفسي، ولم تبتلع مَنْ أحب؛ لكنني لستُ أنا. لم أعد تلك التي غادرت البحرين ذات يوم، ولا طفلاي هما الطفلان اللذان تركتهما خلفي.

كبرا ليس كما ينبغي للأطفال أن يكبروا، كبرا على الهامش، في العتمة، في انتظار يدٍ تمتد لتعيدهما، اليد وصلت متأخرة، خلقت ندوبًا.

كبرا في خوفٍ لا يفترض بهما أن يعرفاه.

وأنا؟ كبرتُ معهما، ليس نضجًا. كبرتُ بهالات سوداء من التعب تحيط بكل نظرة ألقيتها على حياتي. وأخاديد حزنٍ اخترقت طبقات عميقة في روحي، كبرتُ بذاكرةٍ مثقلةٍ بخسائرَ لا تعد.

لكننا هنا والآن،

على هذه الأرض، لهما حقوقٌ كما لي من حقوق. لا أحد يستطيع أن يأخذهما مني بعد اليوم، لا قانون أعمى، لا مؤسسة تقرر أنني غير جديرة بهما، هنا، هما ولداي، وأنا أمّهما، وهذا وحده يكفي.

لم أعد أبحث عن الخلاص، كنتُ أتنفس. كنتُ فقط أبحث عن يومٍ آخر يمكنني أن أعيشه، دون أن أخسر المزيد. طفلاي برهان لقلبي على أنه رغم كل شيء، ما زلتُ قادرة على الحب، إنني ما زلتُ قادرة على أن أكون أمًا، وجودهما مستندٌ يتكئ على أمومتي، حتى لو لم أكن قادرة على إنقاذ الجميع.

***

انتشرَ آخرُ مقطعٍ مصورٍ لعصام قبلَ اختفائه؛ فيديو قصير مدته دقيقةٌ واحدةٌ فقط، لَمْ يرسلهُ لي ولَمْ ينشرهُ على حساباته، مقطعٌ أشبه بهديةٍ غير متوقعة لمحطاتٍ إخباريةٍ تسابقت بعرضهِ، منصاتُ التواصلِ الاجتماعي جعلته في ظرفٍ قياسيٍ أيقونةً متداوَلة، ترند.

بدا أكبرَ سنًّا؛ خيوطٌ بيضاءُ دقيقة تسلّلت إلى لحيته، زادته وسامةً وهيبة، كان متدثرًا بالسواد كعادته منذُ غادرت جُمان: معطفٌ وبلوزة برقبةٍ عالية، خلفه سياجٌ لإحدى محطات المترو. يقف بوقارِ مَن اعتاد مواجهة الكاميرا، ممسكًا هاتفَه على مستوى ذراعه اليمنى، يخاطبُ الجميع:

«إزا مفكّرين إنو صيدنايا هو السجن الوحيد يلي شاف القهر والوجع، فإنتو غلطانين، في سجن تاني اسمو السوسيال، مبني ع القهر والظلم، ولادنا عم يُغتصبوا، عم يُعزبوا، وإحنا ما عم نقدر نعمل شي..»

يغمض عينيه، يلتقط نفسًا ويتابع:

«رجعت سوريا بس النصر الحقيقي لما ولادنا يتحرروا من سجون السوسيال. صار عنا وطن، عطونا ولادنا! خلونا نرجع، الهجرة العكسية عنكن بلّشت. ناس أكتر عم تطلع من بلادكن من اللي عم بتفوت. وهالحكي من تقاريركن... مش من عندي!

بس ما حكيتوا ليش؟ أنا رح قلكن ليش: نحنا شعب بنحب ولادنا. تركنا بلادنا مشانهن. عبرنا البحر والبرد والخوف لنوصل ع بلادكُن، إجيناه مش بطيارات متلكُن، إجيناه بالموت. مشي، جري، تهريب كرمال ولادنا. بس إنتو ما حسّيتوا فينا، سلبتونا ولادنا! وأنا بقلكن... أوراقكن انكشفت. ورح نفضحكن»

رافعًا يده اليسرى أمام جبهته، مسبلًا جفنيه، ينهي مقطعه:

سلام.

***

اعترافات في الخاصرة

ما الذي تفعله بنا كلماتٍ غاب كاتبها بينما ظلّ صوته حيًّا؟

كيف تتحول المذكرات إلى محكمةٍ مؤجلة، إلى جروحٍ تتفتح تباعًا بأثرٍ رجعي، إلى قصاصٍ لا يمكن النزول عنه؟

حين نقرأ مذكراتِ من رحل، لا نفعل ذلك بدهاءٍ ومكر غالبًا، إننا نحاكم أنفسنا ونحن نقلبُ الصفحات، بحثًا عن خيطٍ قد فاتنا، عن صرخةٍ لم نسمعها في وقتها، عن كلماتٍ لم نقلها قبل أن يصبحَ الصمت سلاح الجريمة. نحن لا نقرأ فحسب، نحنُ نحملُ إرث الغائب على أكتافنا، نحمله كأنه عبءٌ وعقابٌ لا فكاك منه.

فالحقيقة لا تموت بموت صاحبها، تبقى نابضة في حروفه. ها هي الحقيبة أمامي، مذكرات جُمان بين يدي، ثلاثة دفاتر مشحونة، لم أكن مستعدة للقراءة، لكنني فعلت. أوراقها المبعثرة استصرختني وليتني لم أستجب.

أمرر بأصابعي المرتجفة على السطور فأتوجع، هي لم تكن تكتب، هي تصرخ، صرخاتها تصل إليّ الآن، متأخرةً، متأخرةً جدًّا...

أقرأ، تضيّق عينيّ، ألتقط الحروف بصعوبة؛ لكنها، رغم تلاشيها أمامي، تسدد طعناتها بدقة:

«منذ سنوات الدراسة الأولى، حين رأى أساتذتي فيّ ترف الحرف، لم أكن أطمح إلى لقب كاتبة بقدر ما كنت أبحث عن منفذ، أتنفّس فيه خوفي، أفرغ ألمي، وأرمم قلقي.

واليوم... أكتب، لأن الكتابة وحدها لم تُنتزع مني.

أخطّ صفحةً لا توقّعها المحاكم، ولا تُمليها السوسيال. صفحة لي، وحدي.

أكتب بين شوقٍ وندم...

ندم يسكنني، يتسلل إلى أنفاسي كلما حاولت أن أقنع نفسي بأنني اخترتُ طريقي، وأنني لست ضحية، وأنني لم أخطئ؛ لكنني أخطأت. مرة حين اعتقدتُ أنّ العالمَ خارج حضن أمّي أوسع، وأكثرُ دفئًا، وعدلًا، ومرة حين ظننتُ أنني حين أهربُ، سأجد نفسي؛ لكنني ـ ويا للأسف ـ ضعتُ أكثر. وصرتُ أخاف أكثر..

ينهشني الخوف كلّ ليلة، يسرقُ نومي، وضحكتي. أخاف ممن حولي، وأخافُ من يدي التي تكتب، وأخافُ من أن تُكشَف كلماتي، تتعرى، تصير ضدي.

أخاف أن أكون رقمًا آخر في تقريرٍ يُضاف إلى ملفاتٍ رسمية.

والشوق.. أقسى من الندم والخوف معًا، أشدّ من كلّ شيء. رأسي على الوسادة. أبكي بصمت، أرسم في رأسي وجوههم كلّ ليلة، أحاول أن أبقيهم معي دائما، أقاوم نسيانًا يبتلعني معهم.

أشتاق ليوسف... هل كبر؟ هل تكلم؟ هل نطق باسمي؟

أشتاق لرائحة أمي.. لحضنٍ أبحث عنه في كل زاوية،

لم أجد من يملأ فراغه. حاولت أن أجتث جذوري من قربها،

أبت الجذور إلا أن تظل هناك، متشابكة مع غيابها.

حبها لي يتلاشى في كلِّ مرة خلف قصة جديدة.. غرام جديد.

وأنا، لا أزال هنا، أبحث عن صوتها في صمتي...

وأنت.. أشتاق إليك... وجدًا،

بعدك عني يجعل الحياة شيئًا لا يمكن احتماله...»

أغلق الدفتر كمن يُخفي جريمة.

انكمش في ركنٍ معتمٍ، أبكي بحرقة، أبتعد..

وأعود من جديد أفتح، أغلق، وأنتقي...

هربتُ من تلك الصفعات إلى صفحاتٍ أخرى، حتى غرقتُ في قاع الوجع تمامًا..

***

هناك جرائمُ تُرتَكَب بتواطؤٍ صامت يمنحُ الجلاد الشرعية لسلطته على الضحية. حين تنكر الحماية وجود الألم، يصبحُ العالمُ بأسرهِ شريكًا في الجريمة، تمسي الحياة مسرحيّة عبثيّة، المذنب يُصفق له، والضحية تُجَرَّد من يقينها حتى تشكك في جراحها.

ماذا يفعل من يحاصره الخوف والخذلان؟ ماذا يفعل حين يدرك أنّ

الأمانَ وهمٌ، والعدالةَ ليست سوى سرديّة محتملة لا تصدق إلّا نادرًا، يبحثُ عن مهرب، ولو كان قرصًا صغيرًا يذوبُ في الدّم كما يذوب الأمل، يسرقُ الوعي ويُطفِئ الحقيقة كما تُطفَأ الأعين حين تعجز عن مواجهة الليل.

كل ليلة... تبدأ الحكاية من جديد.

تغيب الشمس، تغادر زوجته إلى عملها الليلي، يفرغ البيت إلّا مني ومنه.. لأُصبحُ فريسته.

يراه الجميع الأب الطيب؛ لكن الحقيقة تبدأ عندما تُغلَقُ الأبواب. عندما تسحب زوجته معطفها وتغادر، يلتفتُ إليّ بابتسامةٍ أعرفها، نظرةٍ حفظتها، خطواتٍ أصبحتُ أعدّها قبل أن تقترب.

«جُمان، لا تَبقَيْ وحدَك، تعالي نشاهد التلفاز معًا».

يبدأ الأمر هكذا، يبدو عاديًا؛ لكنه ليس كذلك.

يجلس بجانبي، يقترب أكثر مما يجب، يمدُّ يده ليعدّل الوسادة خلفي، يحرك شعري عن وجهي، لمسة خاطفة، نظرة مطوّلة، حركة لا يمكنني تفسيرها إلّا كما هي. أدفع يده، أبتعد، أهربُ إلى غرفتي، أقنع نفسي أنني ربما أتوهم، أنني ربما أبالغ، ربما.. أخطئ في التفسير.

لكن لا .. كلّ ليلة، يحدث الأمر نفسه. كلّ ليلة، يختبر صبري، يقترب أكثر، يجرّب خطواته التالية، يريد أن يعرف متى سأُكسَر، وأتوقف عن المقاومة.

أعرف هذا السيناريو جيدًا، فقد ظلّ يعيد نفسه بداخلي منذ تلك اللمسة التي اغتالت طفولتي وأنا لا أزال ألعبُ بطين الحديقة.

كنت صغيرة جدًا لأفهم، لكن جسدي يتذكر.

يتذكّر كلّ شيء.

نظراته، رائحته، أنفاسه وهو يُقربني كأنّه يشمني.

يده... وهي تعصرني.

الطريق إلى مركز الموهوبين كان طويلًا.

يُشغّل الأغنية نفسها:

«موجوع قلبي... والتعب بيّه...»

ويغنّي... صوته نشاز، يقرّب رأسه ويسأل: صوتي حلو، مو؟

وأنا... أبلع روحي.

أغلق عينيّ، أعدّ الأشجار من النافذة،

أتمنى أن تنهض إحداها...

تصدّ السيارة،

تقلبها،

تُنقذني.

كنت أدعو أن يقع حادث.

أن تنفجر السيارة. أن أموت... ولا يقترب.

أعود للبيت. أمّي لا تشعر بدخولي...

تشعر بقدومه.

تفتح لنا، وتمضي نحوه... دون أن ترى رجفتي.

وأنا، أنزوي برائحته فيّ.

أحكّ يدي، أغسل وجهي،

أدخل الحمّام،

وأغسل، وأغسل... ينتهي الصابون...

ولا تزول رائحته.

كبرت.

وكلّما حاولت النسيان... يشتعل الحواس.

بمجرد أن أشمّ عطرًا يشبهه،

أسمع نفس الأغنية،

أرى ذات السيارة...

أرتجف.

أنا كبرت.

ومازالت رائحته عالقة فيّ وفي أمي،

كبرت، وكبرت معي العقدة، أتابع جلسات التحرر منها، أفتح أبوابًا صدئة في داخلي، أواجه نفسي، أواجه المرآة، وأتكلم عن أشياء ظللتُ أصمت عنها سنوات طويلة.... لكنّي لا أُشفى.

صرت أفهم.

قرأت يوما أنّ الإنسان يجذب ما يخشاه، وأنا أخاف التحرش. أخافه لدرجة أنني أصبحت مغناطيسًا له، هدفًا سهلًا له في أكثر من محطة في حياتي، كأنني أبعث نداءً صامتًا، لا يراه أحد، لكنه يصل دوما إليهم

أعلم أنني لست المذنبة، لكنني أحمل الذنب كأنّ لي يدٌ فيه.

أعلم أنني لست السبب، لكنني أكره نفسي كلما حدث الأمر من جديد.

أعلم، وأحاول التحرر، وأتخبّط بين الوعي والعجز.

بالأمس لم أعد أتحمل، لم أعد قادرة على ابتلاع الخوف والاشمئزاز حين وصل الأمر لاقتحام غرفتي، ذهبت إلى زوجته، المرأة التي من المفترض أن تكون صمام الأمان، يُفترض بها أن تصدقني.

ـ إنه يلمسني كلّ ليلة، حين تسهرين في الخارج، يأتي إليّ، ويقترب مني، يفعل أشياء لا يجب أن يفعلها أبٌ مع ابنته.

تنظر إليّ بعينين فارغتين، كأني خيالٌ يقف أمامها، ثُمّ تطلق ضحكة صغيرة، تعكسُ استهتارها بما أقول.

ـ جُمان، حبيبتي، أنتِ واهمة؛ هانز يحبكِ كابنتهِ. أنتِ مرهقة، كلّ هذه التغيرات أثرت فيكِ.

كل هذه التغيرات؟!

ما الذي تعنيه؟ أنني خسرتُ عائلتي؟ انتُزعت من حضن أمي؟ أُخذتُ بقوةٍ من عالمي، أودعتُ في بيتٍ ظاهره الطمأنينة، وباطنه الجحيم؟

تغيّرت حياتي؛ لكنني لستُ مجنونة، أو واهمة، أنا فقط محاصرة داخل هذا المنزل، بين الخوف والخذلان، محاصرة داخل القانون.

كالعادة حين لا أجد مهربًا، ألجأ إلى الزانكس.

قرصٌ واحد... ثُمّ آخر.

أشعر به يذوب داخلي، ينتشر بهدوء، ستارٌ سميك يفصلني عن الحقيقة، يسحبني من هذا الواقع القذر، من لمسات هانز، من كلماته الخبيثة.

في هذه اللحظات، لا أكون جُمان، لا أكون الضحيّة. أكون فقط... غائبة. وهذا كلّ ما أحتاجه.

***

هُنا.. البحرين

في البحرين، لأول مرة منذ سنوات، لم أعد وحدي، لم يعد بيني وبين إخوتي مسافات، النوايا حين تصفو تعيد ترتيب فوضى القلب، تمنحه دفئًا كاد ينساه. لم أقاوم هذا الدفء، سمحتُ له بأن يتسلل إليّ، أن يعيد لي شيئًا مما سلبته مني سنوات الثلج.

كنتُ أتعلم، ببطء، كيف أكون جزءًا من عائلة مرة أخرى، كيف أسمح لهم بأن يكونوا معي دون أن أخاف من لدغةِ خذلان. صرتُ ألتصق بجذوري ولو.. بحذر.

عبد الله وعيسى أخواي، وأبناؤهما، باتوا أقرب مما تخيلت، أصبح حضورهم يمتدُّ في كلّ تفاصيل يومي. يزورونني دائمًا، يسألون عني وعن طفلَيّ وحاجاتهما، عن كلّ الأشياء الصغيرة في حياتي، يحاولون سدّ فجوةٍ لم ندرك عمقها إلّا حين قَبَرنا جزءًا من كبدنا، والتقينا من جديد. كنت أراهم وهم يبالغون في اهتمامهم بي، لم أفهم تمامًا، حتى جاءت نتائج التحاليل تحمل الحقيقة بِثُقلها: السُّكَّرِيّ.

مرضي لم يكن سوى انعكاسًا لحزنٍ مزمن، لا يحتاج الأمر إلى طبيب ليؤكد ذلك. ليس خللًا عبثيًا في الأنسولين، هو ارتداد الصدمة في الجسد، انتقام الحزن من القلب. يكفي رحيلُ جُمان، وطعنة عصام. جُمان لم تكن لي ابنة فحسب، كانت امتدادًا لي، حلم متجذرٍ في كياني؛ برحيلها نزفتُ معها أجزاء مني لم أستطع استعادتها. لم يعد السكّر رقمًا في التحاليل؛ كان وشمًا لحزنٍ مقيم، شاهدًا على انكسارٍ لا يُجبَر.

التفوا حولي أكثر، تضاعف احتواؤهم لي، يحاولون تطويق خوفي.

حضورهم المكثّف محاولة لإعادة ترميمي. لم يعد اهتمامهم زياراتٍ عابرة، صاروا يقتحمون وحدتي، يجرّونني إلى الحياة رغمًا عني، يخبرونني بأنّ هناك ما يستحق أن أبقى لأجله.

عصر كلّ خميس، أمضي مع حليمة وبنات أخوَيّ إلى قبر جُمان، نحملُ المشموم والورود، نغرسُ أصابعنا في تراب قبرها علّه يوصل ضجيج قلوبنا، نهديها مع الأشواق قرآنًا ودعاءً. نعود إلى لمة العائلة، اعتذاري مرفوض، يُصرّ عبد الله على وجودي، أنا والطفلين.

مرَّ بنا شهر رمضان معا لأول مرّة منذ سنوات طويلة، لم أعِش هذه الأجواء، لَمَّةٌ على سفرةٍ واحدة أعادت إليّ ذكرياتنا قبل موت أبي، نجتمع كما لو أنّ القطيعة لم تمرّ بنا يومًا، حليمة بجانبي، ضحكات أطفالها تمتزج بصَوتَيْ يوسف وكريم، جميعهم يكتبون للحياة أغنيةً جديدة، أغنيةً كنتُ أحتاج سماعها منذ وقتٍ طويل.

وجدت نفسي أتنفس شيئًا مختلفًا، شيئًا يشبه السلام. لم أكن بحاجة إلى أكثر من هذا؛ العائلة... سأبدأ من هنا، مع يوسف وكريم، رغم كلّ الخراب في داخلي، سأعيد بناء ما تبقى منّا، سأبني فوق الأنقاض عالمنا الجديد.

***

أتنقّل بين النشرات كمن يتلمّس حدود الجرح.

في السويد، ما تزال ملفات السوسيال مفتوحة على بكاء مؤجّل، قراراتٌ تُصاغ دون شهود، وأمهاتٌ يُقصين من ذاكرة أولادهنّ بحبرٍ قانوني.

كتب موقع الكومبكس مقالة بعنوان: «الأمم المتحدة تنتقد حقوق الطفل في السويد والحكومة تبدأ تحقيقًا.»

أصابع الاتهام موجهة نحو السويد. وانتقادات وأسئلة: «كيف أنّ الأطفال هناك يُدفعون جانبًا حين يتخذ الكبار قرارات مصيرية تمسّهم، وكيف تُحسم قضايا الإقامة والهجرة والخدمات الاجتماعية دون أن يؤخذ رأيهم بعين الاهتمام».

طالبت الأمم المتحدة بتشريعات تمنحهم الصوت، وردّت الحكومة كالعادة: «لجان، تقييم، وعود».

في قاعة البرلمان، الأصوات تتقاطع. خارج القاعة، الشوارع تغلي لا لأخذ أطفالنا! أعيدوا أبناءنا! حتى التهم صارت عابرة للحدود: السويد تبيع الأطفال لإسرائيل! في الداخل، صراع هويات: نائبٌ يقترح قانونًا

خاصًا لغير السويديين، وآخر يصرخ: لا تمييز في القانون! لكنّ الواقع يُكذّب الجميع.

قصصٌ تتكرّر، أمهاتٌ يطرقن الأبواب المغلقة، أطفالٌ يُسلبون، وأمهات يصرخون.

أحد النواب يخرج إلى ساحة البرلمان، محاطًا بالكاميرات والميكروفونات ليواجه الجمهور:

ـ قانون السوسيال سيُراجَع. سيُنظَر في الحالات القائمة والمستقبلية، ومن يثبت أنّه مظلوم وفق التعديلات الجديدة، سيُعَوَّض.

أحد المتظاهرين صاح من بين الحشود:

ـ وماذا عن الأطفال الذين ضاعوا؟ ماذا عن الذين لم نجد لهم أثرًا؟!

***

وفي سوريا فرح مؤقت مشوب بالقلق والخوف، أشبه بهدنة بين حربين. وجوه تبتسم، وقلوب مشغولة بأسئلة معلّقة: هل ستصيح سوريا الجميع كما حلم بها عصام يومًا؟ أم فقط تغيّر الجلّاد، وأنّ ما يحدث، ليس أكثر من طلاءٍ جديدٍ لجدارٍ قديم؟

الساحل مشتعل، جرمانا تحت الحظر، واليرموك يعدد قتلاه. وفود تمرّ بلا إعلان، وخرائط تُرسم في الظل، اتفاقيات لا تُذاع، تسويات لا تُشرح، أسماء تُمحى من السجلات، العائدون لا يعودون والزائرون بلا أثر.

وعصام ربما هناك في مكانٍ ما.

يمرُّ في شوارع دمشق، يركضُ بين الوجوه، يرفع يده مع المهلّلين، أو يتقاسم مع غريب لحظةً بلا اسم، بلا سياق، بلا ماضٍ مشترك... فقط رعشةُ حلمٍ يتحقق، ولو مؤقتًا.

أو لعلّه واقفٌ في الزاوية، لا يهتف، لا يصفق، يراقب بعينٍ متوجسة فحسب.

هل كان هناك حقًّا؟ أم صار ظلاً يتنقل بين الفرضيات؟ صوته تلاشى لم يترك خيطًا يُتبع، ولا أثرًا يُقتفى. حتى الدربُ خاف أن يشير إليه، كأن الأرض ابتلعته. كأنّه لم يكن.

بعد سقوط دمشق، سرّب مقطعًا مصورًا واحدًا... ثم اختفى.

تحوّلت أخباره إلى شائعات تتقاذفها الحدود: من السويد، من بيت عبير، من دمشق، من إدلب، من بيت خالي الذي أكل الزهايمر ذاكرته.

قيل إنّه يحاول الوصول إلى البحرين بأيّ ثمن. آخرون زعموا أنه شوهد في الريحانية، جنوب تركيا، يبحث عن ثغرة لعبور الحدود من جديد. والبعض أكد أنّه صار مطلوبًا للحكومة السويدية.

وفي رواياتٍ أكثر سوداوية، قالوا أنّه اغتيل في إدلب، مع أمجد أبو عمر، بعد خيانتهما للفصائل المسلحة، أو ربما قُدّم كجزءٍ من صفقةٍ خفيّة بين حكومات ومخابرات، دون أن يُستبعد احتمال سجنه في أحد سجون العهد الجديد بسوريّة.

وربما، نجا. يعيش باسمٍ آخر، يتنقّل كظلّ لا يجرؤ على الظهور.

الأقاويل كثيرة. لكن الحقيقة الوحيدة: أنّ عصام اختفى.

لا رسالة. لا مكالمة. لا مقطع مسرب، لا سجلّ، لا جثة، لا شاهد قبر.

ترك وراءه كلّ شيء؛ رفاة جُمان، طفلَيْه، وأنا.

***

أبتعد عن الأخبار، أفتح محاضرة لجو ديسبنزا.

صوتٌ ينهمر كالمطر على أرضٍ عطشى. ما إن نطق، حتى شعرتُ أنه يخاطبني، لا أحد سواي. كلّ كلمةٍ كانت على مقاس وجعي... على مقاس يقظتي.

حين تكفّين عن الترقّب، عن نظرة العالم لكِ، تدركين ـ ولو متأخرة ـ أنّكِ لم تُخلقي لتكوني ظلًّا تابعًا... بل سيّدة الضوء.

وأنّ الجاذبية ليست في مرآة، ولا في نظرةٍ عابرة، هي في امرأةٍ تنسلّ من ماضيها وتمضي دون خوف. امرأةٍ تمزّق الصورة التي رسمتها لها الظروف، وتعيد نحت ملامحها بصورة أبهى. امرأةٌ لم تعد تعيش على أطلال البارحة، وإنما تبني مجدها من تجربتها بكلّ آلامها. امرأةٌ لا تخشى رحيل رجلٍ، ولا تنتظر عودته. امرأةٌ تفهم أنّ الوجع، إن أحسنّا الإصغاء له، يرسم خارطةً نحو الحرية.

وحريّتي، ليست في لباس، ولا طعام، ولا كلماتٍ منمّقة في كتب التربية أو القانون، بل في قدرتي على اتخاذ قرار، قرارٍ واحدٍ فقط، كلّ يوم، يشبهني، يصدّق قلبي، ويليق بمبادئي.

بدأتُ أستردّ صوتي...صرتُ أكتبني، كما أستحق أن أكون. لأكون نفسي. كلّما اشتدّت العاصفة، ثبتُّ على خيارٍ لا رجعة فيه: أن أكون حقيقية، صادقة.

أدركتُ أخيرًا أنّ الإنسان لا يُصقل بالكمال، بل بالتشظّي. وأنّ في كلّ شرخٍ داخلي، بذرة وعيٍ تتفتّح... تمامًا كما يولد الضوء من قلب الانفجار.

هنا فقط، بدأتُ أفهم جُمان...لا كأنثى تمزّقت، إنّما كإنسانٍ قاتل كي لا يتحوّل إلى نسخةٍ مكرورة. بدأتُ أقرؤها بعين من عبرت الحريق، وأدركت أن من يحترق يصبح وهجًا.

جُمان لم ترحل، هي حاضرةٌ بي، وحولي، بكلّ صراعاتها التي لم تهدأ يومًا. كلّ سطرٍ كتبته، كتبتني به. حيرتها، غيرتها، عشقها، تمزّقها بين ما تريده وما فُرض عليها أن تكونه. شهقاتها بين الحروف، تركت لي اعترافاتها كوصية، كقصاصٍ ممهورٍ بأصابع مرتعشة. أتنقّل بين صفحاتها كما كنتُ أتأرجح بينها وبينه، كأنّهما وجهٌ واحد لذاكرةٍ واحدة تمزّقها الاسم، ويجمعها الفقد.

هو لم يغب.

مكتبة
t.me/soramnqraa

هو نجح في الاختباء.

أراه في كلّ خيطٍ من حكايتها.

الحكواتي الذي لم يُنهِ سرده... تركنا في منتصف الجملة.

وبقي عالقًا في التفاصيل.

في الوجوه التي تشبهه، في أسماءٍ تختلط بدمه.

أطفالي... أنا عالمهم، وسأصمد لأجلهم.

وهو ـ رغم كلّ شيء ـ ما زال محور عالمي، وإن ابتلعه العالم.

***

انتهت

لولو ـ البحرين

حزيران/ يونيو 2025

مكتبة
t.me/soramnqraa

صَدَرَ للكاتبة: رواية أنا لستُ لي

للتواصل عبر منصات التواصل الاجتماعي

@JALILALSAYED

في مدن الحليب والثلج، تُفتح أبواب الأسئلة الكبرى، وما الذي يحدث حين تتحوّل الدولة إلى وصيّ على الحُب، والهوية، وحتى الأمومة؟

رواية تضعك وجهًا لوجه مع مؤسسات حديثة في مظهرها، سلطوية في جوهرها، تنتزع الأطفال باسم الرعاية، وتُعيد تشكيل المصائر كما تُعاد أرشفة الملفات في درجٍ بارد.

من وطنٍ دافئٍ كالبحرين، إلى بلدٍ يشتعل كسوريا، ثم إلى صقيع السويد، تحكي لولوة قصتها...

قصة أم تُحارب من أجل أطفالها، وإنسانة تخوض دائرة النار حتى النهاية.

رواية تكسر القوالب، وتضع التجربة كاملة بين يديك، لتحكم ضميرك قبل كلّ شيء.

سقط نظام الاسد،
هبطت الطائرة في مطار البحرين الدولي تزامنًا مع هذا الخبر.

أنا الآن أمّ ستشعل الأرض تحت أقدام
من سلبوا أطفالها، مستعدة للقتال والمواجهة
وإن كان خصمي أقوى تانون في هذا العالم.

في داخلي بركان، في أعماقي وعدٌ محفور: أن أعود لحقي
المسلوب.. أو أفنى في المعركة.

خضتُ حربًا شرسة، لم أعد لطرأة نفسها
قبل هذه الحرب.

#انقذوا_أطفال_السويد

إخراج وتصميم:

مكتبة
t.me/soramnqraa